روح الاجتماع

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

ترجمه من اللغة الفرنساوية

أحمد فتحي زغلول باشا
وكيل نظارة الحقانية

خليل صادق
صاحب مجلة مسامرات الشعب

مطبعة الشعب بشارع درب الجماميز بمصر

سنة ١٣٢٧ هـ — ١٩٠٩ م

الى اخى وعزيزى محمد افندى حسين هيكل

من اخيكم المخلص

نعمان حسين

روح الاجتماع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله

قرأت مؤلفاً جديداً للعالم الفرنساوى المعروف الدكتور جوستاف لوبون صاحب كتاب (تمدن العرب) وضعه فى بيان أحوال الجماعات وما يعرض للفرد مجتمعاً من تغير المشاعر واختلاف النظر وتبدل حكمه فيما يحيط به وسماه (روح الاجتماع) ورأيت فى نقله الى العربية فائدة لأهلها فاستأذنت المؤلف فى ذلك فتفضل بالأجازة

طُلب منى ان أضع مقدمة تشرح بعض الشرح موضوع الكتاب وتبين طرفاً مما اشتمل عليه فترددت كثيراً ثم رأيت أن أترك الشرح والبيان للقراء أنفسهم واذا كنت نقلت الكتاب الى العربية نقلا صادقا صحيحاً فان معانيه تنساب فى نفس قارئيه من دون احتياج الى شرح ولا رجوع الى بيان ؟

احمد فتحى

القاهرة فى اكتوبر سنة ١٩٠٩ زغلول

اهداء الكتاب من المؤلف

الى تيوفبل ريبو مدير المجلة الفلسفية واستاذ علم النفس في المدرسة الفرنساوية

علامة مودة

جوستاف لوبون

مقدمة المؤلف

خصصنا كتابنا السابق للكلام على الحالة النفسية للشعوب والآن نبحث فى الحالة النفسية للجماعات

تتكون روح كل شعب من مجموع صفات وخلال تتولد فى افراده بالتوارث لكن اذا اجتمع عدد من أولئك الافراد للقيام بعمل من الاعمال تولدت عن اجتماعهم هذا أحوال نفسية جديدة ترتكز على أحوال الشعب وقد تختلف عنها فى كثير من الاوقات اختلافاً كبيراً

كان للجماعات المنظمة على الدوام تأثير كبير فى حياة الامم الاّ ان هذا التأثير لم يبلغ فى زمن من الازمان مبلغه فى الزمن الحاضر فقد حلّ فى ايامنا هذه تأثير الجماعات على غير قصد منها محل تأثير الافراد المقصود لاربابه بالطبيعة واصبح من أخص صفات الحياة الحاضرة

وانى أحاول البحث فى موضوع الجماعات على صعوبته بالوسائل العلمية المحضة أعنى اننى أريد ان اتبع فيه نسقاً مؤسساً على قواعد العلم غير ملتفت الى الآراء والنظريات والمذاهب الجارية مجرى الامور المسلم بها لأنى أرى أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لاقتناص بعض شوارد الحقيقة ولا سيما اذا كان الموضوع مما يشغل الافكار مثل موضوعنا فالعالم الذى يرمى ببحثه الى تقرير أمر من الامور لا يهتم بما عسى أن يصطدم مع هذا التقرير من المنافع والمصالح ـ قال عنى أحد كبار المفكرين وهو موسيو (جوبليه دالفيالا) فى كتاب نشرناه حديثاً انى كثيراً ما خالفت فى نتائج ابحاثى ما اتفق عليه الباحثون من ارباب المذاهب العصرية لانى لست تابعاً لواحد منها وانى لأرجو ان يكون حظ كتابى هذا من تلك الملاحظة حظ سابقيه اذ الانضمام الى مذهب يقتضى التحيز اليه والتزام ما فيه من الأوهام

على انى أرى من الواجب ان أوضح للقراء السبب فى اننى استخلص من بحثى نتائج تخالف التى يظهر بادئ بدء انها نتائجه اللازمة كتقريرى مثلا انحطاط القوة المفكرة عند

الجماعات حتى التى تتألف من نوابغ أهل الفضل وذهابى مع ذلك الى انه من الخطر المساس بها أو العبث بنظامها

ذلك لأن اطالة التأمل فى حوادث التاريخ دلتنى دائماً ان المجتمعات الانسانية عويصة التركيب كالأفراد سواء بسواء فليس فى يدنا ان نحولها فجأة من حال الى حال نعم يتفق ان تحدث الطبيعة تغييراً كلياً فجائياً الاّ ان ذلك لا يكون تابعاً لارادتنا أبداً لذلك كان حب بعضهم للاصلاحات الكلية من اسوأ المؤثرات فى الامم مهما دلّ النظر على حسنها لانها لا تكون مفيدة الاّ اذا كان فى الامكان تغيير روح الامة تغييراً فجائياً والزمان وحده هو صاحب هذا السلطان والذى يحكم الناس مجتمعين انما هى الافكار والمشاعر والعادات وكلها أمور موجودة فينا وحينئذ ليست القوانين والنظامات الا صورة من صور النفس العامة التى لنا وممثلة حاجاتها واذا كانت القوانين والنظامات صادرة عن النفس فهى لن تستطيع تغييرها

واعلم انه لا يجوز فصل البحث فى الأحوال الاجتماعية عن البحث فى الامم التى ظهرت تلك الأحوال فيها لأنه ان

صح نظراً ان لهذه الأحوال قيمة مطلقة فمن المحقق ان قيمتها عملا نسبية دائماً

لذلك ينبغى عند البحث فى حال من أحوال الاجتماع ان ينظر اليها من جهتين مختلفتين تماماً وحينئذ ينجلى للباحث ان تعاليم النظر المحض تخالف غالباً تعاليم النظر العملى وليس من النتائج حتى نتائج الابحاث الطبيعية ما يشذ عن هذه القاعدة الاّ يسيراً انظر الى مكعب او دائرة تجدها من حيث الحقيقة المطلقة صوراً حسابية ثابتة لها صيغ تضبطها ضبطاً دقيقاً لكنها قد تحضر امام العين بصور مختلفة فقد ترى المكعب هرماً او مربعاً وقد ترى الدائرة قطعاً ناقصاً أو خطاً مستقيما ويجب الاهتمام بهذه الصور الصورية اكثر من الاهتمام بتلك الصور الحقيقية لانها هى التى تتراءى امامنا وهى التى يمكن للرسم أو لآلة التصوير ان تنقلها لنا ومن هنا جاز القول بأن الصورى حقيقى اكثر من الحقيقى فى بعض الاحوال لان تشخيص الاشكال الهندسية بصورها الحسابية المنضبطة عبارة عن تشويه طبيعتها وجعلها تخفى على الناظرين فلو فرضنا عالماً لا يسعهم الا رسم الاشياء او نقلها بآلة التصوير من دون

ان يتمكنوا من لمسها لتعسر عليهم استحضار صورتها الحقيقية في أذهانهم على ان معرفة تلك الصورة الحقيقية من العدد القليل أعني العلماء لا يفيد الا فائدة صغيرة جداً

اذن وجب على الحكيم الذي يبحث في الاحوال الاجتماعية ان لا يغفل عما لهذه الاحوال من القيمة العملية بجانب قيمتها العلمية وان الاولى هي التي لها شيء من الاهمية في تطور المدنيات وملاحظة ذلك تقتضي الحيطة والحذر من الوقوف عند ما قد يسوق اليه الاستنتاج المنطقي بادئ بدء

وهنالك أسباب اخرى تدعو الى هذا الحذر منها ان الاحوال الاجتماعية عويصة مشتبكة يتعذر على الباحث ان يحيط بها كلها وأن يتعرف ما لها من التأثير وما بينها من التفاعل ومنها أن وراء الحوادث الظاهرة مؤثرات خافية كثيرة جداً اذ يظهر ان الأولى ليست الا نتيجة عمل عظيم يقع على غير علم منا وهو في الغالب فوق بحثنا فمثل الحوادث الظاهرة مثل الأمواج المتلاطمة التي تترجم فوق سطح البحر عما هو واقع في جوفه من الاضطرابات التي خفيت عنا ونحن اذا نظرنا الى الجماعات نراها تأتي من الاعمال بما يدل على انحطاط

مداركها انحطاطاً كلياً غير ان لها أعمالا أخرى يظهر انها
منقادة فيها بقوة خفية سماها الاقدمون قدراً او طبيعة او يداً
صمدانية وسماها أهل هذا الزمان (صوت من فى القبور)
وعلى كل حال لا يسعنا ان ننكر ما لها من القوة وان جهلنا
كنهها وكثيراً مايظهر ان فى باطن الامم قوى كامنة ترشدها
وتهديها انك لاتجد شيئاً اكثر تعقيداً ولا أدق ترتيباً واجمل
خلقاً من اللغة وما مصدر هذا الشئ الغريب فى نظامه
العجيب فى أسلوبه الا روح الجماعات تلك الروح اللاشاعرة
وأعلم المجامع العلمية وأرقى النحويين انما يجهدون النفس فى
تدوين قواعد اللغات وهم لاشك عاجزون عن خلقها كذلك
لسنا على يقين من ان الافكار السامية التى يحدثها النابغون من
فطاحل القوم انما هى عملهم خاصة نعم هم الذين أوجدوها
ولكن لا ينبغى أن ننسى ان ذرات التراب التى تراكمت
فصارت منبتاً لتلك الأفكار انما كونتها روح الجماعات التى
وجد اولئك النابغون فيها

تتجرد الجماعات دائماً عن الشعور بعملها وقد يكون هذا هو
السر فى قوتها على انا نشاهد فى الطبيعة ان الذوات الخاضعة

لمجرد الالهام تأتى بأعمال دقيقة يحار الانسان فى معرفة جليل صنعها ذلك ان العقل جديد فى الوجود الانسانى وفيه نقص كبير فلا قدرة لنا به على معرفة قوانين الافعال اللاشعورية فما بالك ان حاولنا وضع غيرها فى مكانها. ان نصيب اللاشعور فى جميع أعمال الانسان عظيم وافر ونصيب العقل فيها صغير للغاية والأول يعمل ويؤثر كقوة لا تزال معرفتها غائبة عنا

وعليه اذا أردنا أن نقف عند الحدود الضيقة المأمونة فى معرفة الاشياء من طريق العقل ولا نهيم فى أودية التخمينات المبهمة والفرضيات العقيمة لزمنا أن نقتصر على تقرير الحوادث التى تقع تحت حواسنا وكل استنتاج مبنى على هذه المشاهدات بعد ذلك يكون تسرعاً فى غالب الاحيان لانه يوجد خلف الحوادث التى نراها جيداً حوادث لا نراها الا رؤيا ناقصة وقد يكون وراء هذه غيرها مما لا نراه أصلا

تمهيد

زمن الجموع

تطور أهل الوقت الحالى _ فى ان تغييرات المدنية العظيمة نتيجة أفكار الامم _ اعتقاد أهل هذا العصر بقوة الجماعات _ فى ان هذا الاعتقاد يحول الدول عن سياستها التقليدية _ كيف تسود سلطة طبقات الأمة وكيف تجرى تلك السلطة _ النتيجة اللازمة لسلطة الجماعات _ فى أن الجماعات لا تستطيع الا الهدم _ فى انها هى التى تجهز على المدنية التى وهن بناؤها _ فى الجهل العام بأحوال الجماعات النفسية _ أهمية الوقوف على تلك الاحوال عند الشارع والسياسى

يخال الناظر فى احوال هذا الكون ان الانقلابات العظيمة التى تتقدم تطور المدنية فى الأمم مثل سقوط الدولة الرومانية وقيام الدولة العربية ناشئة عن تطور سياسى عظيم كاغارة الأمم بعضها على بعض أو سقوط الأسر الحاكمة وهكذا لكن بعد انعام النظر فى هذه الحوادث يتبين ان وراء

اسبابها الظاهرة فى الغالب سبباً حقيقياً هو التغير الكلى فى افكار تلك الأمم فليست التقلبات السياسية الحقيقية الكبرى هى التى تدهش الباحثين بعظمها وعنفها وانما الانقلاب الصحيح الجدير بالاعتبار الذى يؤدى الى تغيير حال الامم المدنية يحصل فى الافكار والتصورات والمعتقدات والحوادث العظيمة الخالدة فى بطون التواريخ ليست الا آثاراً ظاهرة لتغير خفى فى افكار الناس واذا كانت تلك الانقلابات العظيمة نادرة الحدوث فذلك راجع الى ان اشد اخلاق الأمم رسوخا عندها هو التراث الفكرى الذى ورثته عن آبآئها

واحرج الازمان فى تطور الفكر الانسانى زماننا هذا ولهذا التطور عاملان اصليان

الاول تهدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التى تتكون منها عناصر المدنية الحاضرة

والثانى قيام احوال جديدة ونشوء افكار جديدة فى الحياة تولدت كلها من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية

ولما كان تهدم الافكار القديمة لم يتم فلم تزل قوتها وكانت

الافكار التى ستحل محلها في دور تكونها كان الزمن الحاضر زمن تحول وفوضى

ومن المتعسر ان نتكهن بما قد يتولد يوماً من الايام من هذا الوقت المشوش كما اننا لا نعرف حتى الآن على أى الافكار الاساسية والمبادئ الاولية يقوم بناء الامم التى تخلفنا ولكن الذى نراه منذ الساعة انه سيكون امام تلك الامم قوة عظيمة لا بد لها من الاعتداد بها لانها اكبر قوة وجدت أريد بها قوة الجماعات تلك القوة التى قامت حتى الآن وحدها على أطلال الافكار البالية التى كان الناس يعتقدونها حقائق وماتت وعاشت بعد ان حطمت الثورات المختلفة كل سلطة كانت تتحكم فى الناس وهى القوة التى يظهر لنا أن مصيرها ابتلاع ما عداها فى القريب العاجل ألا ترى ان معتقداتنا القديمة أخذت تهتز من وهن آساسها وان اساطين المجتمعات القديمة تتداعى وتتحطم وان سلطة الجماعات هى وحدها التى لا يهددها طارئ بل هى تعظم وتنمو وعليه فالدور الذى نحن قادمون عليه هو دور الجماعات لا محالة

كان المؤثر فى الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة

التقليدية للدول ومنازعات ملوكها ولم يكن لرأى الجموع وزن يذكر بل لم يكن له قيمة أصلا فى الغالب ـ أما الآن فالسياسة التقليدية هى التى أصبحت لا وزن لها ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك بل صارت الغلبة لصوت الجماعات فهو الذى يرسم للملوك خطتهم وهو الذى يجتهد الملوك فى الاصغاء اليه وأمسى مصير الامم راجعاً الى ماتحمله روح تلك الجماعات لا الى ما يراه أصحاب مشورة الامراء

فجلوس طبقات الامم على عرش السياسة أعنى تطور تلك الطبقات حتى صارت قادة لدولها هو من أخص مميزات زمن التحول الذى نحن فيه وليس حق الانتخاب العام هو الدليل الصحيح على هـذا التطور لان هذا الحق بقى ضعيف الأثر زمناً طويلا وكان فى مبـدإ أمره سهل القياد وانما تولدت سلطة الجمـاعات رويداً رويداً بانتشار بعض الافـكار التى رسخت فى الاذهان أولا وبتدرج الافراد فى تكوين الجماعات للوصول الى تحقيق تلك النظريات ثانيـاً فالاجتماع هو الذى ولد فى الجماعات قوة ادراك منافعها ومع كونه ليس ادراكا تاماً فهو ثابت متين والاجتماع هو الذى جعلها تشعر

بما لها من القوة والسلطان وهذا أصل تأسيس الجمعيات (السنديكات) التى تخضع امامها السلطات واحدة بعد الأخرى وغرف التجارة (البورصات) التى تطمح الى السيطرة على العمل وأجور العمال وان خالفت فى حكمها قواعد الاقتصاد وأصول تدبير الثروة العامة

والجماعات هى التى تبعث اليوم الى المجالس النيابية لدى الحكومة بوكلاء تجردهم من كل حركة شخصية وكل استقلال فلا يكون لهم من الرأى الا ما رأته اللجان التى انتخبتهم

أخذت طلبات الجماعات الآن تترقى فى مراتب الوضوح وهى لا ترمى الى أقل من قلب الهيئة الاجتماعية الحاضرة رأساً على عقب لترجع بها الى حالة الاشتراك الأولى التى كانت عليها العشائر قبل بزوغ شمس المدنية ـ تطلب الجماعات تحديد ساعات العمل ونزع ملكية المعادن والسكك الحديدية والمعامل والمصانع والاطيان وتطلب توزيع الثمرات بين جميع الناس على السواء واحلال الطبقات الوضيعة محل الطبقات الرفيعة وغير ذلك

الجماعات أقدر على العمل منها على التفكير وقد أصبحت

بنظامها الحاضر ذات قوة كبرى وعما قريب يكون للمذاهب التي نراها اليوم في دور التكون من السلطان العظيم على الافكار ما للمذاهب التي رسخت أصولها في الاعتقادات أعني سلطاناً مستبداً لا تأثير فوق تأثيره فلا تعود تحتمل البحث أو الجدال وحينئذ يقوم حق الجماعات المقدس مقام حق الملوك الاقدسين

ولقد استولى الهلع على قلوب الكتاب الذين لهم منزلة لدى الطبقات الوسطى في الامم وهم الذين يمثلون اكثر من غيرهم افكارها الضيقة ونظرها القصير ويأسها غير المبني على التأمل الصحيح وحب الثبات البالغ غايته فخشوا عاقبة ذلك السلطان الجديد الذي اخذ ينمو ويعظم ومالوا الى مقاومة ما استحوذ على الافكار من الاضطراب فولوا وجوههم قبل الكنيسة مستصرخين بسلطانها الادبي وتأثيرها الروحي بعد ان بالغوا في احتقارها وغالوا في اهمال جانبها ونادوا بافلاس العلم في طريق تهذيب النفوس فهم يرجعون من روما تائبين منيبين يدعوننا الى الرجوع للتمسك بحقائق الوحي والتنزيل وفات اولئك المتدينين من جديد ان الوقت قد

فات — واذا صح ان الفيض الالهى اخـذ من نفوسهم فانه لن ينال من نفوس جماعات لا تعتد كثيراً بما يقلق ضمائر اولئك الزهاد فلم تعد ترغب فى الأرباب التى رغبوا هم عنها بالامس وكان لهم نصيب فى تحطيمها وليس فى طاقة البشر ولا مما تتعلق به القدرة الالهيـة جعل مياه الانهار تصب فى ينابيعها

ما أفلس العلم ولا ذنب له فى فوضى الافـكار التى انتشرت فى هذا الزمان ولا فى سلطة الجماعات التى تمو وسط تلك الفوضى انما العلم وعدنا كشف الحقيقة او على الاقل بيان النسب التى تربط الامور بعضها ببعض مما تقدر على ادراكه لكنه ما وعدنا السلام ولا السعادة ابداً والعلم جماد بالنسبة لمشاعرنا واصم لا يصل اليـه صراخنا وانما نحن الذين يجب عليهم ان يحملوا انفسهم على الاتفاق معه اذ لا شئ يقدر ان يعيد لنا تلك الاوهام التى فرّت امام نوره

توجد علامات عامة ظاهرة فى جميع الامم تدل على سرعة نمو سلطان الجماعات نمواً لا رجاء فى وقوفه آجلا ونحن خاضعون لحكمه حاملون كل ما أنتج بالقهر عنا فكل قول

فيه باطل لا فائدة منه ومن الجائز ان تولى الجماعات قياد الامم يكون خاتمة ادوار مدنية الغرب فيرجع الى الانغماس فى اودية الفوضى التى يخال انه لا بدّ لكل امة من اجتيازها قبل الوصول الى دور الحضارة والرقى ولكن اين السبيل الى منع ما هو كائن

ينحصر الاثر الواضح لعمل الجماعات حتى الآن فى هدم صروح المدنية فالتاريخ يدلنا على انه كلما وهنت القوى الادبية التى يقوم عليها بناء تقدم أمة من الامم كانت خاتمة الانحلال على يد تلك الجماعات الوحشية اللاشعورية التى سميت بحق متبربرة اما الذين أقاموا صروح المدنية وشيدوا أركان الحضارة فهم نفر امتازوا بسمو المدارك وبعد النظر ولكنا لم نر حتى الآن للجماعات أثراً مثل هذا فهى انما تقدر على الهدم والتحطيم وزمان حكمها زمان بربرية على الدوام لان المدنية لا تقوم الا على مبادئ مقررة ونظام ثابت وانتقال من العمل بمقتضى الغريزة الى الاهتداء بنور العقل والبصر بالمستقبل ومرتبة راقية من العلم والتهذيب وتلك وسائل برهنت الجماعات على انها غير اهل لتحقيقها اذا تركت وشأنها ـ ومثل الجماعات فى

قوتها الهادمة مثل المكروبات التي تعجل بانحلال الاجسام الضعيفة وتساعد على تحلل الاجساد الميتة فاذا نخرت عظام مدنية تولت الجماعات تقض بنائها هنالك يظهر شأنها الأول ويخيل لنا بادئ بدء أن العامل في حوادث التاريخ هو كثرة العدد

انا لنخشى ان يكون هذا أيضاً مصير مدنيتنا لكن ذلك الذي لا نعرف منه شيئاً حتى الآن

وكيفما كانت الحال فلا مندوحة لنا عن الخضوع لحكم الجماعات لأن ايدياً طائشة أزالت بالتدريج جميع الحواجز التي كانت تمنع من طغيانها

كثر الكلام على الجماعات ونحن لا نعرف من حالها الا يسيراً لأن المشتغلين بعلوم النفس عاشوا بمعزل عنها فجهلوا أمرها على الدوام وانما اشتغلوا بها في الأيام الاخيرة من جهة ماقد ترتكب من الجرائم والآثام نعم توجد جماعات شريرة الا ان هناك ايضاً جماعات فاضلة وجماعات ذات شجاعة وهكذا فالنظر اليها من حيث الشر وحده نظر للشيء من جهة واحدة ولا يتوصل الباحث لمعرفة ادراك الجماعات ببحثه في الجرائم

التى قد تصدر عنها كما انه لا يتوصل الى معرفة ادراك الفرد بالبحث فى عيوبه خاصة

ومع ذلك فان الذين سادوا على العالم وساسوا الأمم والممالك ممن شرعوا الاديان واسسوا الدول ورسل المذاهب كلها واقطاب السياسة حتى رؤساء العشائر الصغيرة كانوا دائماً من علماء النفس وهم لا يشعرون فكانوا يعرفون روح الجماعات معرفة فطرية وكانت تلك المعرفة صادقة فى اغلب الاحايين ومعرفتهم لذلك جيداً هى التى مكنتهم من السيادة عليها كان نابليون واسع الخبرة باحوال الجماعات النفسية فى البلاد التى انبسطت يده عليها ولكنه جهل غالباً روح الجماعات فى شعوب اخر كذلك كان شأن اكبر مستشاريه فانهم ايضاً لم يفقهوا حقيقة حال الجماعات الاجنبية عن امتهم فقد كتب له (تايلران) ان اسبانيا تلاقى جيوشه لقاء المنجدين فلما زحفت اليهم استقبلتهم كما تستقبل الوحوش الكاسرة ولو انه كان على شئ من العلم بما ورثت تلك الأمة من الأميال لسهل عليه معرفة هذا الاستقبال . ذلك هو السبب فى ان نابليون قام فى بلاد الاسبان وفى بلاد الروسيا على الاخص

بحروب كانت عاقبتها التعجيل بسقوطه

معرفة روح الجماعات اصبحت اليوم اخر ملجأ يأوى اليه السياسى العظيم لا لاجل ان يحكمها فقد صار ذلك الآن صعباً كثيراً بل ليخفف عنه شدة تأثيرها •

واذا اردنا ان نعرف ضعف تأثير القوانين والنظامات فى الجماعات فانما السبيل الى ذلك تدقيق البحث لمعرفة روحها والوقوف على احوالها النفسية وبذلك نفقه ايضاً انه لاقدرة لها على تكوين رأى او التفكير فى شئ خارج عن الدائرة التى رسمت لها وانها لاتقاد بقواعدالعدل النظرية بل بالبحث عما من شأنه التأثير فيها واختلابها فلو اراد وازع فرض ضريبة جديدة وجب عليه ان لايختار التى هى اقرب للعدل من حيث قواعد الاقتصاد فى ذاتها فربما كان أبعدها عن العدل اكثرها قبولا بالفعل عندالناس فان كانت هذه الاخيرة ايضاً اقل وضوحاً وأخف حملا فى الظاهر كان ذلك ادعى الى قبولها لهذا كانت الضريبة المقررة مقبولة لدى الجمهور كيفما كانت باهظة لانهم يؤدونها تدريجاً على اقسام صغيرة عند شراء حاجاتهم اليومية فهى لاتضيق عليهم فيما الفوه ولا تؤثر فيهم لذلك تأثيراً غير

محمود فاذا بدلت هـذه الضريبة بضريبة الايراد او الاجور بحيث يدفعونها مرة واحدة علت اصوات الشكوى من كل جانب ولو كانت هـذه الضريبة اخف من تلك عشر مرات ذلك لان مبلغاً ذاقيمة ظاهرة حل محل فلس يدفع بالتدريج يوما بعد يوم ووجب اداؤه دفعة واحدة وفى ذلك من موجبات الضجر مالا يخفى ولو انهم اقتصدوه درهما الى درهم لبان لهم ضعفه وما شعروا بثقله لـكن هذه وسيلة اقتصادية تقتضى شيئاً من التبصر وذلك مالا تقدر الجماعات عليه

المثـال الذى قدمناه من اسهل الامثـال ومعرفة صحته ميسورة للـكافة وهو لم يغب عن متفرس مثل نابليون لـكن المشرعين الذين جهلوا حياة الجماعات لا يدركونه لان التجارب لما تعلمهم ان الناس لا يسيرون ابداً على مقتضى قواعد العقل وحده

ومن السهل الا كثار من الامثلة التى ينطبق عليها عـلم روح الاجتماع فمعرفة ذلك العلم توضح وضوحاً تاماً عـدداً كبيراً من الحوادث التاريخية والاجتماعية يستحيل ادراك حقيقتها بدونه وسأبين فى حينه ان السبب فى كون اكبر

مؤرخى الأعصر الحاضرة واعنى به المسيو (تاين) لم يفقه تماماً بعض حوادث الثورة الفرنسية انما هو لأنه لم يشتغل بالبحث فى روح الجماعات بل استرشد فى الكلام على هذا القسم العويص من التاريخ بطريقة الطبيعيين التى هى تصوير الحوادث ووضعها غير ان القوى الادبية ليست مندرجة فيما يبحث فيه الطبيعيون الاّ شذوذاً مع ان تلك القوى هى التى تقوم عليها دعائم التاريخ

معرفة احوال الجماعات النفسية ضرورية سواء اردنا من ذلك جانبها العملى او الرغبة فى مجرد الوقوف على ماهو كائن فمن المفيد استكناه اسباب الافعال التى تصدر عن الانسان كما انه من المفيد معرفة حقيقة المعدن او الفراس

سيكون كلامنا فى روح الاجتماع موجزاً بمعنى انه سيكون تلخيصاً لمباحثنا فلا يطلبن القارئ منه الاّ بعض افكار ترشد الى غيرها ولغيرنا ان يوغل فى الموضوع اما نحن فانما نخططه على أرض لاتزال عذراء(١)

---

(١) قلت ان القايل من العلماء الذين بحثوا فى علم روح الجماعات قصروا بحثهم على الجهة الجنائية منها اما انا فلم اخصص لهذه الجهة الا

فصلا صغيراً من هذا الكتاب لذلك ارجع القراء الى مباحث موسيو (تارد) ورسالة موسيو (سيجيل) التى سماها (الجماعات الجارمة) وتشتمل تلك الرسالة بجانب مباحث مؤلفها الخاصة به على ذكر مشاهدات جمعها من مؤلفات غيره مما تفيد مطالعته علماء روح الاجتماع على ان مااستخلصته أنا من حيث قوى الجماعات العقلية وقابليتها للشر والجريمة تخالف ما ذهب اليه هذان العالمان على خط مستقيم

وسأنشر عما قريب كتاباً أتكلم فيه على روح الاشتراكية وهنالك تتبين اهمية الكثير من قواعد روح الجماعات على ان تلك القواعد تنطبق على موضوعات اخر تخالف الموضوع الذى نحن بصدده

ومن تلك التطبيقات ماشاهده موسيو (جيفيرت) مدير المتحف الموسيقى بمدينة بروكسل فى رسالة كتبها على الموسيقى وسماها اسماً جديراً بمسماه وهو (فن الجماعات) وبعث الى بنسخة منها مع كتاب يقول فيه — ان كتابيك هما اللذان ساعدانى على مسألة كنت أرى قبل الآن حلها مستحيلا وهى قابلية الجماعات قابلية عجيبة لذوق قطعة موسيقية اذا قام بتمثيلها منفذون يقودهم رئيس ذو حماسة قوية سواء كانت تلك القطعة جديدة او قديمة وطنية اواجنبية بسيطة اومركبة وقد ذكر موسيو جيفيرت فى رسالته ان القطعة الموسيقية قد لايذوقها اشهر الموسيقيين الذين يطالعونها بسكينة فى كسر بيتهم ويدركها لاول وهلة سامعون ليس لهم أدنى المام بقواعد الفن واصوله

الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الأول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسانى

ما الجماعة عند علماء النفس ـ فى ان مجرد اجتماع عدد كبير من الافراد لايكفى لتكوين جماعة – فى اتحاد وجهة افكار الافراد الذين تتألف الجماعة منهم ومشاعرهم وانعدام شخصياتهم ـ فى ان الجماعة خاضعة دائماً لحكم اللاشعور ـ انزواء الحياة الشعورية وظهور الحياة اللاشعورية ـ انحطاط القوة العاقلة وتغير الاحساس تغيراً كلياً ـ فى ان ذلك الاحساس المتغير يكون أحسن او اردأ منه فى الاشخاص الذين تتألف الجماعة منهم ـ سهولة اندفاع الجماعة الى الشجاعة والى الشر

الجماعات بالمعنى المتعارف اللفيف من القوم مطلقاً وان اختلفوا جنساً وحرفة ذكوراً كانوا او اناثاً وعلى اى نحو اجتمعوا اما فى علم النفس فلها معنى أخر ففى بعض الظروف يتولد فى الجمع من الناس صفات تخالف كثيراً صفات الافراد المؤلف هو منها حيث تختفى الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الافراد نحو صوب واحد فتتولد من ذلك روح عامة وقتية بالضرورة الاّ انها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح وحينئذ يصير ذلك الجمع لفيفاً مخصوصا لم اجد لتسميته كلمة اليق من لفظ الجماعة المنظمة او الجماعة النفسية فكأن ذلك اللفيف ذات واحدة وبذلك يصير خاضعاً لناموس الوحدة الفكرية الذى تخضع الجماعات لحكمه

وضح مما تقدم ان مجرد اجتماع افراد كثيرين اتفاقا لا يكسبهم صفة الجماعة المنظمة وان الف نفس اجتمعوا عرضاً فى رحبة واسعة لغير قصد معين لا يكونون جماعة عند علماء النفس بل لا بد فى توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات مخصوصة سنوضحها فيما بعد

ثم ان اختفاء الذات الشاعرة واتجاه المشاعر والافكار نحو

غرض واحد وهما الصفتان الأوليان للجماعة ابان انتظامها لا تستلزمان دائماً وجود اشخاص عديدين فى مكان واحد بل قد تتوفر صفة الجماعة النفسية لآلاف من الناس وهم متفرقون اذا تأثرت نفوسهم تأثراً شديداً بحادث جلل كفاجعة عامة فى الأمة فان اجتمعوا اتفاقا وهم تحت ذلك التأثير لبست اعمالهم ثوب اعمال الجماعات لساعتها وقد تتألف الجماعة من بضعة عشر فرداً وقد لا تتوفر هذه الصفة لمئات اجتمعوا اتفاقاً وقد تصير الأمة كلها جماعة من دون ان يكون هناك اجتماع ظاهر اذا وقع عليها كلها أثر واحد

ومتى تكونت الجماعة النفسية عرض لها صفات عامة مؤقتة لكنها ظاهرة يمكن تحديدها ويقوم بجانب تلك الصفات العامة صفات خاصة تختلف باختلاف العناصر التى تتألف منها الجماعة وربما أثرت هذه الصفات فيما لها من القوة المدركة

وعلى هذا يمكن تقسيم الجماعات النفسية الى انواع وسنوضح عند الكلام على هذا التقسيم انه يوجد للجماعات التى تتألف من عناصر مختلفة والجماعة التى تتألف من عناصر متشابهة (كالعشيرة والطبقة والطائفة) صفات عامة جامعة وان لكل

قسم مميزات خاصة به

وقبل الكلام على انواع الجماعات ينبغى ان نأتى على بيان الصفات العامة لنكون حذونا حذو الطبيعيين الذين يذكرون اولا الخواص التى تصدق على جميع افراد كل فصيلة قبل ان يشرحوا الخواص التى تمتاز بها الاجناس والانواع المندرجة فى تلك الفصيلة

ليس من السهل شرح حقيقة روح الجماعات شرحاً دقيقا لان نظامها يختلف اولا باختلاف الشعب وتركيب الجمعيات وثانياًباختلاف طبيعة المؤثرات التى تقع على الجمعيات المذكورة غير ان هـذه الصعوبة حاصلة عنـد البحث فى نفس الفرد الواحد لان الفرد لايحيي حياة واحـدة لاتتغير الاّ فى القصص والروايات وغاية مافى الأمر ان وحدة البيئة تحدث وحدة الخلق فى الظاهر ليس الاّ وقد بينت فى غـير هـذا المكان ان فى جميع القوى المدركة استعداداً لتوليد اخلاق جديدة تظهر اذا تغيرت البيئة تغيراً فجائياًهكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنساوية افراداً كانوا كالوحوش الضارية وقد كانوا فى زمن السلم قضاة من ذوى الفضل او موثقين اولى سكينة

هادئين فلما سكنت العاصفة عادوا الى سكينتهم وكان لنابوليون منهم اعوان مخلصون

ولما كان لا يتيسر لنا ان نشرح هنا نظام الجماعات على اختلاف درجاته وجب ان يكون بحثنا فى التى كمل نظامها فنعرف حينئذ ماقد يؤول اليه امر الجماعات لا ماهى عليه دائماً خصوصاً اذا لوحظ ان الجماعة التى وصل نظامها الى حد الكمال الممكن هى التى تحدث لها صفات خاصة جديدة ترتكز على مافى مجموعها من الصفات الثابته التى لعامة الشعب وهى التى تتحد فيها الارادات وتتجه المشاعر نحو مقصد واحد وهى التى يظهر فيها ذلك الناموس الذى سميته فيما تقدم ناموس الوحدة الفكرية للجماعات

ومن الصفات النفسية ماتشترك فيه الجماعة مع الافراد ومنها ماهو خاص بها دون الفرد وسنبدء بالكلام على هذه الصفات الخاصة لنبين مالها من الاهمية

. اهم ماتمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع افرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التى يشعر ويفكر ويعمل بها كل واحد منهم على انفراده وذلك

كيفما كان اولئك الافراد وكيفما تباينوا او اتفقوا فى احوال معيشتهم وفى اعمالهم اليومية وفى اخلاقهم ومداركهم وعلة ذلك مجرد انضمامهم الى بعضهم وصيرورتهم جماعة واحدة ومن الافكار والمشاعر مالا يتولد او يتحول فيخرج من عالم القوة الى عالم الفعل الاّ عند الفرد فى الجماعة فالجماعة ذات عارضة (مؤقتة) متألفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض الى أجل كخليات الجسم الحى التى ولدت باتصالها ذاتاً أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها ورغماً عما ذهب اليه هربرت سبنسر ذلك العالم الحكيم المدقق مما ندهش له تقول انه لا يوجد بين العناصر التى تتكون منها الجماعة حد وسط وانما الذى يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة كما يحدث ذلك فى الجواهر الكيماوية الا ترى انك اذا جمعت جوهرين مثل القواعد والاحماض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تماماً خواص كل واحد من الجوهرين

لذلك كان من السهل معرفة الفرق بين الفرد فى الجماعة وبين الفرد وحيداً غير انه يصعب الوقوف على السبب فى ذلك

ولكن يقربنا البحث من معرفة هذه الاسباب

على وجه ماينبغى ان لانغفل عن القاعدة الآتية التى شاهدها علماء النفس فى العصر الحاضر وهى ان للحوادث اللاشعورية فى حركة الادراك الشأن الأول كما انها كذلك فى الحياة الجسمانية وان حياة النفس الشاعرة ليست الا شيئاً يسيراً بجانب حياتها اللاشعورية حتى ان ادق الباحثين تأملا وابعد المحققين نظراً لايسعه ان يقف الا على قليل من البواعث اللاشعورية التى تدفعه الى الحركة بل ان حركاتنا المقصودة لنا او الشعورية مسببة عن مجموع اسباب لاشعورى متولد على الأخص من تأثير الوراثة فينا وهذا المجموع يشتمل على بقايا الاباء والجدود التى لايحصيها العد ومنها تتألف روح الشعب او الامة التى نحن منها فوراء أسباب اعمالنا التى تقصدها اسباب خفية لاارادة لنا فيها ووراء هذه اسباب كثيرة اخر اشد خفاء واكثر غموضاً بدليل اننا لا نفقه شيئاً منها وجلّ افعالنا اليومية صادر عن اسباب خفية تفوتنا معرفتها

يتشابه افراد الشعب بالعناصر اللاشعورية التى تكوّن روحه العامة وهم انما يفترقون بالخواص الشعورية التى هى نتيجة التربية وبالاخص نتيجة وراثة استثنائية واشد الناس

افتراقا من حيث مداركهم يتشابهون بالوجدانات والشهوات والمشاعر واعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة فى الامور التى مرجعها الشعور كالدين والسياسة والآداب والميل والنفور وهكذا الا نادراً فقد يكون بين الرياضى الكبير وبين صانع حذائه بعد ما بين السماء والارض من حيث العقل والذكاء ولكن الفرق بينهما فى الطباع معدوم فى الغالب او هو ضعيف للغاية

هذه الصفات العامة فى الطباع المحكومة باللاشعورية الموجودة فى جميع أفراد كل أمة بدرجة واحدة تقريباً هى التى لها المقام الاول فى حركة الجماعات فتختفى مقدرة الافراد العقلية فى روح الجماعة وتنزوى بذلك شخصيتهم وبعبارة أخرى تبتلع الخواص المتشابهة تلك الخواص المتغايرة وتسود الصفات اللاشعورية

ولكون الجماعات انما تعمل متأثرة بتلك الصفات الاعتيادية يتبين لنا السر فى عدم قدرتها ابداً على الاتيان بأعمال تقتضى فكراً عالياً وعقلا رجيحاً حتى انك لا تجد فرقاً كبيراً فيما يقرره جمع من نخبة الرجال ذوى الكفاآت المختلفة وما يقرره

جمع كله من البلداء فى موضوع المنفعة العامة لانهم لا يمكنهم ان يشتركوا فى هذا العمل الاّ بالصفات العادية التى هى لكل الناس فالذى يغلب فى الجماعات انما هى البلاهة لاالفطنة وما كل الناس بأعقل من (فولتير) كما يقولون غالباً بل الواقع ان فولتير أعقل من كل الناس اذا أردنا بكل الناس الجماعات

لكن لو كان كل فرد فى الجماعات لا يأتى لها الا بما اشترك فيه من الصفات مع غيره لكانت النتيجة حداًوسطاً فقط وما تولدت خصال جديدة كما قدمنا فمن أين اذن تأتى تلك الخصال . هذا الذى نبحث فيه الآن

الاسباب التى تولد هذه الصفات الخاصة فى الجماعات دون الافراد كثيرة

الأول ان الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال فى امياله مما كان يحجم عنه منفرداً بالضرورة ثم هو لا يكبح جماح نفسه لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الافراد فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة وهذا الشعور

هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغي

السبب الثاني من الاسباب التي تولد في الجماعات صفات جديدة وتوحد وجهتها هو العدوى والعدوى من الظواهر التي يسهل بيانها ولكنها ليست مما يتيسر تعليله وهي من فصيلة الحوادث المغناطيسية التي سيأتي الكلام عليها وكل شعور في الجماعة وكل عمل يصدر عنها فهو معد الى حد أن الفرد يضحي مصلحته الذاتية لمصلحة الجماعة وهذه قابلية مخالفة جداً لطبيعة الانسان فهو لا يقدر عليها خارج الجماعة الا نادراً

السبب الثالث وهو أهمها مما يولد في افراد الجماعة صفات خاصة مباينة تمام المباينة لصفات كل واحد منهم على انفراده هو قابليته التأثر التي هي أصل في العدوى السابق الكلام عليها ولسهولة ادراك هذه الظاهرة يلزمنا ان نذكر هنا بعض اكتشافات جديدة دلّ عليها علم وظائف الاعضاء منها انه اصبح من الواضح امكان وضع الشخص بطرق شتى في حالة يفقد فيها ذاته الشاعرة تماماً فينقاد الى جميع ما يشير به عليه ذلك الذي أذهبها عنه ويرتكب أشد الافعال مباينة لخلقه

وعادته وقد دلّ النظر الدقيق فى احوال الجماعات ان الفرد متى أمضى زمناً بين جماعة تعمل لايلبث ان يصير فى حالة خاصة تقرب كثيراً من حالة الشخص النائم نوماً مغناطيسياً بين يدى المنوم وذلك بتأثير السيالات التى تصل اليه من الجماعة او باسباب أخر مما لم تقف عليه بعد وحالة الشخص النائم هى تعطيل وظيفة المخ وصيرورته هو مسخراً لحركات مجموعه العصبى اللاشعورية التى يسيرها المنوم كيف يشاء هنالك تنطفىء الذات الشاعرة تماماً وتفقد الارادة ويغيب التمييز وتتجه جميع المشاعر والافكار نحو الغرض الذى رسمه المنوم

تلك ايضاً على التقريب حال الفرد فى الجماعة فانه فيها لا يبقى ذا شعور بافعاله وبينما هو يعدم بعض ملكاته تشتد فيه قوة البعض الأخر اشتداداً كبيراً كما هو الحال بالنسبة للشخص النائم فتراه عند الاشارة يندفع الى الفعل المشار اليه اندفاعا لاقبل له بمقاومته وهذا الاندفاع هو عند الفرد من الجماعة اشد بكثير منه عند الشخص النائم لان التأثر حاصل للجميع فيشتد بالتفاعل بينهم والذين قويت شخصيتهم فاستعصوا على الانفعال وسط الجماعة قليلون ولا طاقة لهم

بمصادمة تيار الجميع بل الذى يقدرون عليه هو تحويل الاندفاع الى غرض اخر كما وقع احياناً من ان لفظاً سعيداً او خيالا يمثل فى الوقت المناسب امام الجماعة يصدها عن ارتكاب افظع الاعمال

والخلاصة ان انكماش الذات الشاعرة وتسلط الذات اللاشاعرة واتجاه المشاعر والافكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد والاهبة الى الانتقال فوراً من الافكار التى اشير بها الى الفعل هى الاخلاق الخاصة التى يتخلق بها الفرد فى الجماعة فهو لم يعد هو بل صار آلة لا تحكمها ارادته

ومن اجل ذلك يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية ولعله فى نفسه كان رجلا مثقف العقل مهذب الاخلاق ولكنه فى الجماعة ساذج تابع للغريزة ففيه اندفاع الرجل الفطرى وشدته وفيه عنفه وقسوته وفيه حماسته وشجاعته وفيه منه سهولة التأثر بالالفاظ والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة ثم فيه الانقياد بذلك الى فعل مايخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التى اشتهرت عنه وبالجملة فان الانسان فى الجماعة اشبه بحبة من رمال تثيرها الريح ماهبت

ذلك هو السر فى أن جماعة المحلفين تصدر قرارات يردها كل من افرادها اذا عرضت عليه وحده وفى ان المجالس النيابية تسن من القوانين وتقرر من الاعمال مايرفضه كل عضو من اعضائها بمفرده . كل واحد من رجال الثورة (كونفانسيون) الفرنساوية كان فرداً متنوراً ذا طباع سليمة فلما صاروا جماعة لم يحجموا عن تقرير افظع الاعمال حتى اسلموا للاعدام اطهر الناس برآة من الآثام ثم خالفوا منافعهم فتنازلوا عن حق احترام الناس فى ذواتهم وحصدوا بذلك بعضهم بعضاً

ليس هذا هو كل مايفترق به الفرد فى الجماعة عن نفسه منفرداً افتراقا كلياً بل انه قبل ان يفقد استقلاله الذاتى تتغير افكاره ومشاعره تغيراً كلياً فيصير البخيل مسرفا والمتردد سريع الاعتقاد والتقى شريراً والجبان شجاعا هكذا قرر الشرفاء لما تحمسوا ليلة ٤ اغسطس سنه ١٧٨٩ الشهيرة التنازل عن امتيازاتهم ومن المحقق انه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراده لرفضه رفضاً بتاً

نستنتج مما تقدم ان الجماعة دائماً دون الفرد ادراكا ولكنها من جهة المشاعر والاعمال الناتجة عنها قد تكون خيراً منه

او اردأ على حسب الاحوال والأمر فى ذلك راجع الى الكيفية التى تستفز بها وهذا هو الذى اهمله الكتاب الذين قصروا بحثهم فى الجماعات على جهة الشر منها فاذا صح ان الجماعة شريرة فى كثير من الاوقات فمن الصحيح ايضاً انها شجاعة فى اوقات كثيرة اخر تلك حال الجماعات التى يستفزها قوادها الى التقاتل فى نصرة الدين او تأييد المذهب او يستحثونها للعمل فى سبيل المجد والفخار فيقودونها بلا تعب وبغير سلاح لتخليص حزب الله من يد الكافرين كما فى حروب الصليبيين او للذود عن حومة الوطن كما وقع فى سنة ١٧٩٣ نعم ذلك الشجاع لا يقر بشجاعته ولكنها هى مادة التاريخ فأنا لو اقتصرنا على تعداد الاعمال العظيمة التى فعلتها الأمم وهى هادئة مطمئنة ما وجدنا من ذلك الا يسيراً

الفصل الثانى

مشاعر الجماعات واخلاقها

—

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب — الجماعة العوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة — البواعث التى تدفع الجماعة الى الفعل قوية جداً تمحى امامها المنفعة الخاصة — لاشىء من افعال الجماعة يصدر عن قصد وروية — تأثير الاخلاق القومية فى الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر وللتصديق — طاعة الجماعة للمؤثرات فى انها تأخذ الخيالات التى تمثل لها حقائق ثابتة — علة اجماع افراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفية واحدة فى التساوى بين العالم والبليد فى الجماعة — بعض امثلة للخيالات التى يتأثر بها افراد الجماعة كلهم — فى استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة —

فى ان اتفاق العدد العديد من الشهادات من اردأ الأدلة على اثبات امر معين — ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) فى غلو مشاعر الجماعة و بساطتها — الجماعة لاتعرف الشك ولا التردد وتذهب دائماً الى التطرف — فى ان مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائماً

(٤) فى ان الجماعة قليلة المسالة ميالة الى التسلط والأمرة والمحافظة على القديم — فى علة تلك الصفات — فى خنوع الجماعة امام السلطة القوية — فى ان نزوع الجماعة الى الثورة وقتا من الاوقات لايمنع من كونها محافظة للغاية — فى ان مشاعر الجماعة تضاد التقلبات والترقى

(٥) فى اخلاق الجماعة — قد تكون اخلاق الجماعة احط كثيراً من اخلاق افرادها وقد تكون ارقى منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التى تتأثر بها ـ علة ذلك وامثلته ـ قلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع انها هى الداعى الوحيد للفرد فى عمله ـ شأن الجماعة فى تهذيب الاخلاق

بعد ان اجملنا القول فى اهم خواص الجماعات ينبغى ان نأتى عليها بالتفصيل

كثير من الصفات الخاصة بالجماعة كقابلية الاندفاع والغضب وعدم القدرة على التعقل وفقدان الادراك

وملكة النقد والتطرف فى المشاعر وغير ذلك يشاهد ايضاً فى الافراد الذين لم يكمل تكوينهم كالمرأة والمتوحش والطفل ولكنى لا اذكر هذه المشابهة الا عرضاً اذ الدليل عليها يخرج عن دائرة هذا الكتاب على ان ذلك غير محتاج اليه لدى من عرف احوال النفس عند الاقوام الذين لا يزالون على فطرتهم الأولى ثم هو لايقنع من لا المام له بتلك الاحوال أقناعاً تاماً

ولنشرع فى شرح كل صفة من الصفات التى توجد فى اغلب الجماعات .

١

قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب

قدمنا عند الكلام فى صفات الجماعة الأوليه انها منقادة عادة الى العمل من دون ان تشعر بالدافع اليه فتأثير المجموع العصبي فى افعالها اكبر جداً من تأثير المخ وهى بذلك تشبه كثيراً الرجل الفطري وقد تكون الافعال التى تصدر عنها

كاملة من حيث التنفيذ الاّ ان العقل لم يكن رائدها فيها بل ان الفرد فى الجماعة يعمل طوعا للمؤثرات التى تدفعه الى الفعل فالجماعة العوبة فى يد المهيجات الخارجيه وهى تمثل تقلباتها المستمرة وحينئذ هى مسخرة للمؤثرات التى تقع عليها نعم قد يقع الرجل منفرداً تحت تلك المؤثرات عينها لكن عقله يرشده الى مضارها فلا ينقاد لحكمها وذلك ماقد يعبر عنه علماء وظائف الاعضاء بان فى الرجل وحده قدرة يتمكن بها من ضبط اعصابه دون الجماعة اذ ليس لها شئ من ذلك

تتبع الدوافع المختلفة التى تبعث الجماعة الى الفعل طبيعة المؤثرات التى ترجع اليها فتكون رحيمة او قاسية عليها مسحة الاقدام او الخمول لكنها تكون على الدوام شديدة فلا تثنيها المنافع الذاتية حتى منفعة حفظ الذات نفسها

ولما كانت انواع المؤثرات فى الجماعة مختلفة جداً وكانت الجماعة تخضع لها دائماً لزم ان تكون الجماعة متقلبة كذلك وهذا هو السبب فى انها تنتقل فجأة من افظع الاعمال الى اكبرها رحمة وكرماً فما اسهل ماتصير الجماعة جلادة ولكن ما ايسر ماتكون ضحية ايضاً وما سالت الدماء التى اقتضاها

تأييد كل عقيدة فى الوجود الاّ من بطون الجماعات ولسنا فى حاجة الى ان نذهب بعيداً فى التاريخ لنعلم ماتقدر عليه الجماعات فى هذه السبيل فما ساومت على حياتها فى ثورة ومنذ اعوام قليلة ذاعت شهرة أحد القواد فجأة فى الناس ولو انه اراد لوجد مائة الف نفس مستعدة لملاقاة الموت انتصاراً له (١)

وعلى ذلك لايوجد من افعال الجماعة ماهو صادر عن قصد وروية فهى تنتقل من شعور الى شعور وهى على الدوام خاضعة لتأثير الشعور المستحوذ عليها وقت الفعل مثلها فى ذلك مثل اوراق الشجر تحملها العاصفة وتبددها شذر مذر ثم تسكن فتهبط وسنأتى بامثلة على تقلبات الجماعة عند الكلام على بعض الجماعات الثورية

وشدة تقلب الجماعة تجعل قيادها صعباً على من يزاوله

---

(١) يشير المؤلف الى الجنرال بولنجيه أحد رؤساء الجنود الفرنساوية فى العقد التاسع من القرن الماضى حيث أصبح كالنار على علم شهرة وقولا والتفت حوله القلوب التفافاً دعاه الى الهرب من جميع الاحتفالات العمومية خيفة الهرج والافتتان به ولولا انه عاجلته المنية لجدد زمان نابوليون وأتى الفرنساويون تحت أمرته مالم يكن فى الحسبان

خصوصاً اذا وقع فى يدها قسط من السلطة العامة ولولا ان مقتضيات الحياة اليومية تفعل فى الامور كمنظم خفى لتعسر جـداً البقاء على الدمقراطية (الحكومات النيابية) الاّ انه بقـدر ما تتطرف الجماعة فى ارادة الشيء تسرع بالعدول عن تلك الأرادة فانها لاقدرة لها على الارادة المستمرة كما انها لاتقدر على اطالة النظر والتفكير

ليست قابلية الاندفاع والتقلب كل ماتمتاز به الجمـاعة بل هى مع ذلك كالهمجى لا تطيق وجود حال بينهـا وما تريد والذى يساعدها على ان لاتعقل الحيلولة ان الكثرة تحدث فيهاشعوراً بقوة لاحد لهافتصور المستحيل بعيد عن الفرد فى الجماعة . يشعر الرجـل منفرداً بعجزه عن احراق قصر او سلب حانوت فان دفعه دافع قاوم وامتنع فاذا دخـل الجماعة أحس بقوة لم تكن له من قبل وتشجع بكثرة العدد وكفى ان يشار اليه بقتل أو سلب لينساب انسياباً لا يثنيه عنه شيء فان كان فى طريقه عقبة اقتحمها بعنف وشدة ولو احتمل تركيب الانسان دوام الغضب لقلنا ان الحالة الطبيعية للجماعة التى خولفت فى مقصدها هى الغضب الدائم

وليلاحظ ان خصال الشعب الاساسية منضمة دائماً الى صفات الجماعات الخاصة من قابلية الغضب والاندفاع والتقلب وجميع المشاعر القومية التي سنأتى عليها فالأولى هى الاساس الذى ترتكز عليه الثانية ولبيان ذلك نقول ان كل جماعة قابلة للغضب والاندفاع لكنها تتفاوت في ذلك كثيراً فالفرق جليّ بين جماعة لاتينية وجماعة انكليزية سكسونية واقرب الحوادث فى تاريخنا يوضح ذلك باجلى بيان فقد كفى منذ خمس وعشرين حجة تلاوة نباء برقى عن اهانة فرض وقوعها لسفيرنا حتى هاجت الأمة وثارت ثائرتها وتولد من ذلك لساعته حرب ما كان اشد هولها وبعد ذلك ببضع سنين ورد نبأ أخر بانكسار تافه لجيوشنا فى (لانجسون) فقامت القيامة وسقطت الحكومة فى الحال وفى ذلك الزمن عينه انكسرت الحملة الانكليزية امام الخرطوم انكساراً اكبر من هذا بكثير فلم ينزعج له الرأى العام الانكليزى الا قليلا ولم تتزحزح من اجل ذلك وزارة عن مركزها . كل الجماعات فى كل الأمم كالنساء واشدها شبها بها الجماعات اللاتينية فمن اعتمد عليها جاز ان يرقى الى الذرى فى وقت قصير لكنه يكون على الدوام

مماساً لصخرة زبيان (١) وموقنا انه سيتدهور يوماً من الايام

٣

قابلية الجماعة للتأثر والتصديق

قلنا فى تعريف الجماعات ان من اخص صفاتها قابليتها الشديدة للتأثر وبينا كيف ان التأثر معد فى كل مجتمع انسانى وفى ذلك ايضاح لسرعة توجه المشاعر كلها نحو غرض محدود

وكيفما ظهرت على الجماعات شارات الهدو والسكون فانها على الدوام فى حالة انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلا فأول مؤثر يبدو تراه يخضعها لحينه بامتداد عدواه الى رؤوس الكل وفى الحال يحصل اتجاه الجميع نحو الغرض المقصود وسواء كان ذلك الغرض احراق قصر او اتيان عمل كريم فانها تندفع نحوه بسهولة واحدة والأمر انما يتوقف على طبيعة المحرك لا على ما يرجحه العقل من وجوب امضاء الفعل

(١) هى صخرة عالية كان يرمى بعض الجناة من حالقها

او الاحجام عنه كما فى الافراد

ولما كانت الجماعة على الدوام محاقة فى حدود اللاشعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات احساس قوى كاحساس الاشخاص الذين لا تمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز كان من شانها ان تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد فهى لاتعرف الغير المعقول فليذكر ذلك القراء ليفقهوا السر فى سرعة انتشار الاقاصيص التى تخرج عن حد المعقول (١)

ثم ان سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد فى اختراع الاقاصيص التى تنشر بسرعة بين الناس بل لذلك سبب اخر وهو التشويه الذى يعتور الحوادث فى مخيلة المجتمعين اذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتنقلب صورتها فى

---

(١) الذين شهدوا حصار مدينة باريس يعرفون أمثلة كثيرة من سرعة تصديق الجماعات بما لا يتصوره العقل من ذلك انهم كانوا يرون فى مصباح أوقد فى نافذة احدى المنازل اشارة معطاة للعدو مع ان أقل التفات كان يكفى للاقتناع باستحالة رؤية العدو لضوء ذلك المصباح وهو بعيد عنه بعدة اميال

خيال الجماعة بلا ابطاء لان الجماعة تفكر بواسطة التخيلات وكل تخيل يجر الى تخيلات ليس بينها وبينه ادنى علاقة معقولة وانا لندرك هذه الحال اذا ذكرنا ماقد يتوارد علينا من الافكار الغريبة لمجرد تخيلنا واقعة من الوقائع والفرق بيننا وبين الجماعة ان العقل يرشدنا الى مابين هذه التخيلات وبعضها من التنافر والتباين وانه ليس فى قدرتها ان تصل الى مثل هذا التميز وان كل ما احدثه خيالها من التشويش تضيفه الى اصل الحادثة فهى لاتفرق بين الشىء وما يرمى اليه بل هى تقبل جميع الخيالات التى تعرض لها ولا نسبة فى الغالب بين تلك الخيالات وماوقع تحت الحس اولاً

ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التى تدخلها الجماعة على حادثة شاهدتها وتنوع تلك الصور لان امزجة الافراد الذين تتكون هى منهم مختلفة متباينة بالضرورة لكن المشاهد غير ذلك والتشويش واحد عند الكل بعامل العدوى لان اول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخميرة التى تنتشر منها العدوى الى البقية فقبل ان يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق اسوار بيت المقدس كان بالطبع قد تخيله احدهم

اولا [1] فما لبث التأثر والعدوى ان مثلاه للبقية جسما مرئياً

هكذا وقعت جميع التخيلات الاجماعية الكثيرة التى رواها التاريخ وعليها كلها مسحة الحقيقة لمشاهدتها من الألوف المؤلفة من الناس

ولا ينبغى في رد ماتقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من اهل العقل الراجح والذكاء الوافر لانه لاتأثير لتلك الصفة في موضوعنا اذ العالم والجاهل سواء فى عدم القدرة على النظر والتميز ماداموا فى الجماعة ورب معترض يقول ان تلك سفسطة لأن الواقع غير ذلك الا ان بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من الحوادث التاريخية ولا يكفى لهذا العمل عدة مجلدات غير انى لا أريد ان اترك القارئ امام قضايا لادليل عليها ولذلك سآتى ببعض الحوادث انقلها بلا انتقاء من بين الوف الحوادث التى يمكن سردها

وابدأ برواية واقعة من اظهر الأدلة فى موضوعنا لانها واقعة خيال اعتقدته جماعة ضمت الى صفوفها من الافراد

---

(١) والواقعة مجرد خيال لكنها جرت مجرى الحقيقة لاجماع الصليبيين عليها

صنوفاً وانواعا مابين جاهل غبي وعالم المعي رواها عرضاً ربان السفينة جوليان فيليكس في كتابه الذى الفه فى مجارى مياه البحر وسبق نشرها فى (المجلة العلمية)قال

كانت المدرعة (لا بيل پول) تبحث فى البحر على الباخرة (بيرسو) حيث كانت قد انفصلت عنها بعاصفة شديدة وكان النهار والشمس صافيـة وبينما هى سائرة اذا بالرائد يشير الى زورق يساوره الغرق فشخص رجال السفينة الى الجهة التى أشـير اليها ورأوا جميعاً من عساكر وضباط جلياً زورقاً مشحوناً بالقوم تجره سفن تخفق عليها أعلام اليأس والشدة كل ذلك كان خيالا فقد انفذ الربان زورقاً صار ينهب البحر انجاداً للبائسين فلما اقترب منهم رأى من فيـه من العساكر والضباط اكداساً من الناس يموجون ويمدون ايديهم وسمعوا ضجيجاً مبهماً يخرج من أفواه عدة حتى اذا وصلوا المرئى وجدوه اغصان اشجار مغطاة باوراق قطعت من الشاطىء القريب واذ تجلت الحقيقة غاب الخيال

هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذى يتولد فى الجماعة بحال لا تحتمل الشك ولا الابهام كما قررناه من قبل فهنا

جماعة فى حالة الانتظار والاستعداد وهناك رائد يشير الى وجود مركب حفها الخطر وسط الماء مؤثر سرت عدواه فتلقاه كل من فى الباخرة عساكر وضباطاً

ليس من الضرورى ان تتألف الجماعة من عدد كبير حتى تنعدم فيها حاسة ابصار الاشياء على حقيقتها وتبدل الحقائق بخيالات لا ارتباط بينها وبينها بل متى اجتمع بعض افراد تألفت منهم جماعة لها مالكل الجماعات من الصفات وان كانوا من اكابر العلماء ولبست هذه الصفات كل واحدمنهم فيما هو بعيد عن اختصاصه العلمى وفى الحال تنزوى ملكة التميز وتنطفئ روح النقد فى كل واحد منهم ومن الامثلة الغريبة على ذلك مارواه لنا موسيو (دافى) وهو احد علماء النفس المحققين وقدنشرته حديثاً مجلة (اعصر العلومالنفسية) ويحسن بنا ايراده . دعا اليه موسيو (دافى) عدداً من كبار اهل النظر وفيهم عالم من اشهر علماء انكلتره هو المستر (ولاس) وقدم لهم اشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختوماً كما شاؤا ثم اجرى امامهم جميع ظواهر فن استخدام الأرواح من تجسيم الأرواح والكتابة على

(الأردواز) وهكذا وكتبوا له شهادات قالوا فيها ان المشاهدات التي وقعت امامهم لاتنال الا بقوة فوق قوة البشر فلما صارت الشهادات في يده اعرب لهم ان ما كان انما هو شعوذة ما ابسطها قال راوى الحادثة : والذى يوجب الدهش والاستغراب في بحث موسيو (دافى) ليس ابداعه ومهارته في الحركات التي قام بها بل ضعف الشهادات التي كتبها اولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها وان الشهود قد يذكرون روايات كثيرة واقعية كلها خطاء وانه لو صح وصفهم الحوادث التي يروونها لتعذر تفسيرها بالشعوذة على ان الطريقه التي استنبطها موسيو (دافى) بسيطة يندهش الانسان لبساطتها من جراءته على استعمالها ولقد كان له من التأثير في افكار جماعته ماجعلها ترى مالم تكن ترى

ذلك هو تأثير المنوم في المنوم دائماً واذا تبين ان هذا التأثير جائز في عقول سامية بعد ان أنذرت فكم يكون من السهل التأثير في عقول الجماعة العادية

والامثلة التي من هذا القبيل لاتحصى . انا اكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق ابنتين صغيرتين

وانتشالهما من نهر (السين)

عرضت الجثتان فعرفهما بضعة عشر شخصاً معرفة اكيده واتفقت اقوالهم اتفاقاً لم يبق معه شك في ذهن قاضى التحقيق فرخص بدفنهما وبينما الناس يتهيأون لذلك ساق القدر البنتين اللتين عرفهما اولئك الشهود بالاجماع وبان انهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين الفقيدتين الا شبه بعيد جداً والذى وقع هنا هو بذاته ماوقع فى الامثلة التى سردناها . تخيل الشاهد الأول ان الغريقتين هما فلانة وفلانة فقال ذلك وا كده فسرت عدوى التأثير الى البقية

وأول مراتب التأثير فى هذه الحوادث وامثالها هو على الدوام مايتولد من الخيال عند احدهم بسبب حضور بعض المشابهات المبهمة فى ذا كرته ثم يتدرج من ذلك الى القول بما تخيل فتنشاء عدوى التأثر بذلك الخيال الأول فاذا كان اول من يقع الحادث تحت حواسه سريع التأثر يكفى ان يكون فى الجثة التى تعرض عليه علامة او أثر خاص كالذى قد يكون فى الجسم الذى سبقت له معرفته ليتخيل انها هى ولولم يكن بينهما ادنى شبه حقيقى فى الخلقة اذ ذاك يصير

الخيال الأول اشبه بنواة ذات تبلور تحتل ساحة الأدراك وتعطل ملكة التميز تماماً . وحينئذ لا يرى الانسان الشيء الذى امامه نفسه بل الصورة التى خيلت اليه . ومن هنا نفهم السر فى خطأ الامهات اللاتى يخيل اليهن انهن يعرفن جثث اولادهن كما وقع فى الحادثة الأتيه وهى وان تكن قديمة العهد لكن الجرائد ذكرتها اخيراً ومنها يدرك القارىء درجة التأثر الذى بينا كيفيته. عرف غلام جثة غلام وكان مخطئاً وترتب على ذلك ان اشخاصاً كثيرين عرفوا الجثة كما عرفها الأول. وحدث على اثر هذه المعرفة المتكررة امر من الغرابة بمكان اذ جاءت امرأة فى اليوم الثانى وهى تصيح : ربى انه ولدى . فلما دخلت عليه اخذت تقلب ثيابه فرأت جرحا فى الجبهة فقالت نعم هذا ولدى فقدته منذ شهر يوليه الماضى ولقد سرقوه منى ثم قتلوه . وكانت هذه المرأة حارسة باب أحد المنازل واسمها (شافاندريت) ثم جىء بزوج اختها فما وقع نظره على الجثة الا وقال هذا فيليبير . كذلك عرفه كثير من سكان حارته كما عرفه معلم المدرسة اذ رأى فى عنقه تميمة من الذهب كانت لديه حجة دامغة على انه هو ابن تلك السيدة.

اجل كل اولئك الناس كانوا مخطئين وبان بعد ستة اسابيع ان الجثة جثة ولد من اهل مدينة (بوردو) قتل هنالك وحملته شركة النقل الى باريس (١)

والذى تجب ملاحظته هو ان هذه المعرفة تقع غالباً من النساء أو الصبيان أعنى من الاشخاص شديدى التأثر اكثر من غيرهم . وذلك يدلنا على مقدار قيمة مثل هذه الشهادات امام القضاء . فالواجب ان لا يلتفت الى قول الصبى بحال من الأحوال . يقول القضاة مجمعين ان الانسان فى هذا السن لا يكذب . ولو انهم ارتقوا فى معرفة أحوال النفس درجة لعلموا انه فيه يكذب على الدوام . نعم انهم غير آثمين فيما يكذبون ولكنهم على كل حال يكذبون والاّ لكان الأولى أن تبنى العقوبات على أحد وجهى الدينار (طره ولاّ ياز) من ان تبنى على شهادة صبى

ولنرجع الى مشاهدات الجماعة فنقول انها اكثر المشاهدات خطأ وانها فى الغالب عبارة عن خيال فرد واحد سرت عدواه الى الجميع . وقد لا نفرغ من سرد الامثلة التى توجب علينا

---

(١) اقرأ جريدة (اكلير) — ٢١ ابريل سنة ١٨٩٥

الحذر والحيطة فى الاخذ بشهادة الجماعة . فقد حضر الوف من الناس منذ خمس وعشرين سنة حملة الفرسان فى واقعة (واترلو) ومع ذلك يستحيل معرفة القائد الحقيقى لهذه الحملة نظراً لتناقض اقوال من شهدوها . واثبت الجنرال (ولسلى) الانكليزى فى كتاب نشره اخيراً أن الرواة اخطأوا خطأ فاحشاً حتى الآن فى سرد اهم الوقائع فى حرب (سدام) وهى التى اجمع المئات من الناس على صحتها [1]

---

(١) انى اشك كثيراً فى اننا نعرف حقيقة سير حرب واحدة والذى نعرفه انما هو الغالب والمغلوب واظن اننا لا نعرف غير ذلك والذى رواه الدوق (داركور) عن حرب (سولفيرينو) يصدق على جميع الحروب قال : يكتب القواد تقاريرهم بناء على قول المئات من العساكر فيتناولها الضباط المكلفون بتبليغ الاوامر ويعدلون فيها ويحررون النسخة النهائية فيخالفهم رئيس أركان الحرب ويعيد تحريرها من جديد على حسب معلوماته ثم يعرضونها على القائد العام فيصيح بل أنتم مخطئون ويحل محلها غيرها فلا يبقى من الاصل الا يسير وانما حكى موسيو (داركور) هذه الحكاية ليبرهن على ان الوصول الى معرفة حقيقة اشهر الحوادث حتى التى ضبطت لساعتها يكاد يكون مستحيلا

هذه الحوادث تدلنا على قيمة شهادة الجماعات . نعم ان كتب المنطق تعد اجماع العدد الكثير على الشهادة من أقطع الادلة التي يمكن اقامتها لاثبات أمر من الامور ولكن الذى نعرفه من علم أحوال النفس يرشدنا الى انه يجب ان تؤلف كتب المنطق فى هذا الموضوع من جديد فالشك كل الشك فى الوقائع التى رواها الجم الغفير والقول بأن الامر شوهد فى الزمن الواحد من الوف من الشهود هو فى الغالب قول بأن الواقع يخالف كثيراً ما اتفق اولئك الشهود عليه

نتج من هذا انه ينبغى النظر الى كتب التاريخ كأنها كتب أملاها الخيال لاحتوائها على روايات وهمية لحوادث اصطحب بالشك وقوعها تحت الحواس واردفت بشروح متأخرة عنها وعليه فان عمل أى عمل كيفما كان رديئاً أولى من قتل الوقت فى وضع مثل تلك التآليف

ومن سوء الحظ انه لا ثبات للاقاصيص وان سجلت فى بطون كتب التاريخ لان خيال الجماعات لا ينفك يغيرها ويحرفها مدى الزمن بدليل ما نعرفه الآن من الفرق العظيم بين يهوذا ذلك الوحش الكاسر الذى جاء ذكره فى الانجيل

ويهوذا آله الحب الذى ذكره القديس (تيريز) . وبدليل ان (بوذا) الذى يعبده الصين لم يبق بينه وبين (بوذا) المعبود فى اليابان وجه شبه ما

بل انه لا يلزم أن تتعاقب الاجيال لتتغير صور عظماء الرجال فى خيال الجماعات فان هـذا الانقلاب قد يحصل فى بضع سنين . اناشاهدنا قصة اعظم رجال التاريخ تقلبت عدة مرات فى أقل من خمسين عاما . ففى عهد آل (بوربون) كان نابليون رجلا يحب الانسانية حر الافكار صديقاً للضعفاء ولو صدق الشعراء لبقى ذكره فى اكواخهم (الفقراء) زمناً مديداً . وبعد ثلاثين سنة صار البطل الكريم مستبداً سفاكا استلب الحكم والحرية واهلك ثلاثة آلاف الف من النفوس فى سبيل اطماعه . واليوم نحن نشهد صورة جديدة لنابوليون . فاذا انقضى عليه بضع عشرات من القرون داخل الريب علماء ذلك الزمان امام هذه الروايات المتناقضة فى وجود هذا البطل كما يشك بعضهم الآن فى وجود بوذا وقد لا يرون فيه الا خرافة او صورة مكبرة من صورة (هرقل) اليونانى . غير انه سيكون لهم من معرفة روح الاجتماع ما يسرى

الحزن عنهم لقاء هذا الشك وخفاء الحقيقة اذ يعلمون ان التاريخ انما يخلد الخرافة والاقاصيص

٣

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها

كيفما كانت مشاعر الجماعة اى سواء كانت طيبة او رديئة فان لها صفتين . بساطة للغاية . وغلواً للنهاية . ومن هذه الجهة يقل الفرق بين الفرد مجتمعاً والرجل الفطرى كما يحصل ذلك أيضاً فى أحوال أخرى . فهو يفقد ملكة التميز الدقيق . ويرى الاشياء فى جملتها ولا يعرف ضرورة الانتقال من طور الى آخر . ومما يزيد فى غلو مشاعر الجماعة ان كل احساس يبدو فسرعان ماينتشر بعامل التأثر والعدوى . واجماع الكل على قبوله يزيد فى قوته زيادة كبيرة

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لاتعرف الشك ولا التردد . فهى كالنساء تذهب فوراً الى الحد الاقصى . فالشبهة متى بدت تنقلب الى بديهى لايقبل البحث . والرجل منفرداً

قد لا يقر على أمر او ينفر منه نفوراً لا يتعدى مجرد الرغبة عنه وأما الرجل فى الجماعة فانه متى نفر انقلب نفوره حقداً شديداً .

وتزداد شدة المشاعر غلواً على الاخص فى الجماعة المؤلفة من أفراد غير متشابهين لفقدان تبعة الاعمال من بينهم . فيتولد عندها من المشاعر وتأتى من الاعمال مايستحيل صدوره عن الفرد الواحد . لتحقق كل من عدم وقوعه فى العقاب . وكلما كان العدد كبيراً قوى فيه هذا الاعتقاد وشعر بقوة حاضرة عظيمة . هنالك ينسى الجبان والجاهل والحسود درجة انحطاطهم وضعفهم ويحل محلها خيال قوة وحشية وقتية لكنها هائلة

ومن نكد الطالع ان غلو مشاعر الجماعات يظهر غالباً فى الشر . وتلك بقية مما ورث أهل هذا الزمان عن آبائهم الأولين . وهى مشاعر يرد جماحها الرجل المنفرد المسؤول عن عمله مسوقاً بعامل الخوف من العقاب . وهذا هو السبب فى سهولة قيادة الجماعة الى اقبح درجات التطرف

ومع ذلك ليست الجماعات غير قابلة للقيام بأكرم الاعمال

والاخلاص وأرفع الفضائل اذا حسن التأثير فيهـا . بل هى أشد قبولا لذلك من الرجل المنفرد . وسنعود الى هذا الموضوع عند الـكلام فى أخلاق الجماعات

وكما ان الجماعة تغالى فى مشاعرها فلا يؤثر فيها الا المشاعر المغـالى فيها . فالخطيب الذى يريد اجتـذاب قلوبها يلزمه الاكثار من التوكيدات الحادة .لان المبالغة والتوكيد والتكرار وعـدم التعرض ابداً الى اقامة البرهان على أى قضية كلها وسائل خطابية يعرفها خطباء الاجتماعات العمومية حق معرفتها

تطلب الجماعة من ابطالها الغلو ايضاً فى مشاعرهم فما ينبغى لهم من أجلها ان يفخموا فى ألقابهـم ويعظموا من فضائلهم الصورية . وقد شوهد ان الجماعة تطلب من ابطال الروايات فى مراسح الملاهى شجاعة واخلاقاً وفضائل ليست لأحد فى الوجود الحقيقى .

والـكثير ينسب هـذا الميل لاحوال الملاهى الخاصة التى تولد فى نفوس المتفرجين هذا الشعور . نعم لتنسيق المراسح على نحو مخصوص فن ذو قواعد غير انها قواعد لاتنطق غالباً

على مايقتضيه الذوق السليم والأحوال المنطقية . والواقع ان فن الخطابة فى الجماهير ذو درجة منحطة . الا انه يقتضى صفات مخصوصة وكثيراً ما يحار الانسان عند تلاوة رواية فى معرفة السبب فى نجاحها . حتى ان مديرى الملاهى انفسهم عند ما تقدم اليهم تلك الروايات يشكون فى نجاحها لأنهم لا يقدرون على الحكم عليها الا اذا لبسوا ثوب جماعة متفرجين (١) . ولو انه أتيح لنا التوسع فى هذا البحث لبينا

---

(١) وبما تقدم ندرك السبب فى ان الرواية الواحدة يرفضها مديرو الملاهى كلهم ثم تسنح فرصة فتشخص فتنال نجاحا دونه كل نجاح ونجاح رواية موسيو (كوبيه) المسماة من (أجل التاج) معروف ومشهور بعد ان رفضها مديرو الملاهى الشهيرة كلها مدى عشر سنين مع علو كعب المؤلف ومنزلته الادبية الكبرى . كذلك رواية لامارين دى شارلى . أبت الملاهى كلها تشخيصها فانفق أحد السماسرة المال اللازم لتمثيلها فمثلت مائتى مرة في فرنسا واكثر من الف مرة في بلاد الانجليز ولولا ما قدمناه من استحالة نظر مديرى الملاهى في الروايات نظر جماعة المتفرجين ما فهم كيف جاز ان يصدر عنهم مثل تلك الاحكام او يصدر عنهم مثل ذلك الخطأ الجسيم وهم من كبار الادباء بين أهل الفن ولهم فى تمثيل الروايات منافع

رجحان تأثير الاخلاق القوميــة فى هذا المقام . لان الرواية التى تخلب العقول فى بلد قد لا يلتفت اليها فى بلاد غيرها الاّ بقدر ما تقضى به المجاملة والاصطلاح لانها لا تحرك فى غير بلدها شجون سامعيها وهو شرط نجاحها

لست فى حاجة الى القول بان مغالاة الجماعات تكون على الدوام فى مشاعرها ولا تتعدى الى قوتها العاقلة ابداً . فقـد سبق لى بيان ان مدارك الرجل فى الجماعة تنحط سريعاً انحطاطاً عظيما ذلك هو ما شاهده ايضاً أحد أفاضل القضاة موسيو (شارد) فى مباحثه عن جرائم الجماعات وعليه فالجماعة انما ترتقى او تنحط فى دائرة المشاعر

٤

عدم مسالمة الجماعات وميلها الى التسلط والأمرة والمحافظة على القديم

قلنا ان الجمـاعات لا تعرف من المشاعر الا ما كان متطرفاً

كبيرة من شأنها ان تبعدهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه . هذا موضوع لا يسعنى الاسهاب فيه وهو جدير بان يشحذ له قلم رجل يجمع بين فن الملاهى والبراعة فى علم النفس مثل موسيو سرسى

بسيطاً وهى لذلك تقبل ما يلقى اليها من الآراء والافكار والمعتقدات بجملتها او ترفضها كذلك فتأخذها حقائق مطلقة أو ترغب عنها أباطيل مطلقة على ان هذا هو الشأن فى المعتقدات التى تتحصل من طريق التلقى لا التى تتصل بالانسان من طريق النظر والتعقل وكل يعرف ما للمعتقدات الدينيـة من التأثير فى عدم احتمال المخالف ومن السلطان على النفوس

ولما كان باب الشك غير مفتوح امام الجماعة فى كل ما اعتقدت انه حق أو باطل وكانت تشعر شعوراً تاماً بقوتها كانت أمرتها مساوية لعـدم احتمالها . يطيق الفرد المناظرة والخلف . اما الجماعة فلا تطيق ذلك أبداً وأقل خلف يأتى به الخطيب الذى يتكلم فى المجتمعات العمومية يتلقاه السامعون بأصوات الغضب والسباب الشديد فان أصر فنصيبه الاهانة والطرد بلا امهال ولولا الرهبة من رجال الشرطة الحاضرين لقتلوه أحياناً

عدم الاحتمال والأمرة شائعان فى الجماعات كلها غير انهما يختلفان فى كل واحدة منها وهنا ايضاً يظهر لنا أثر الاخلاق القومية المتسلط على جميع مشاعر الناس وافكارهم . فاقصى درجات عدم الاحتمال والأمرة توجد فى الجماعات اللاتينية

اذ بلغت عندها الى حد انها اماتت فى الفرد روح الاستقلال التى هى اشد اخلاق الانكليزى السكسونى فلا تهم الجماعات اللاتينية الا باستقلال المجموع الذى هى منه . واخص مميزات هذا النوع من الاستقلال شدة الميل الى التعجيل باخضاع المخالف فى الرأى لمعتقد الجماعة عنوة وقسراً ذلك هو نوع الحرية الذى عرفه المتطرفون فى كل عصر ولم يكن فى قدرتهم ان يعرفوا سواه

الأمرة وعدم الاحتمال حاستان من الحواس التى تجيد الجماعات معرفتها فهى تدركهما بسهولة وتتلقاهما بسهولة وتعمل على مقتضاهما بسهولة عند الطلب وهى تحترم القوة وتخنع لها ولا تتأثر بالحسنى الا قليلا لانها فى نظرها صورة من صور الضعف ليس الا لذلك لم تمل الى رؤسائها الذين عرفوا بالرفق واللين بل الى الطغاة المستبدين الذين سحقوها . لمثل هؤلاء تقيم الجماعة التماثيل فى كل عصر وأوان واذا تخطت بالاقدام فوق غشوم سقط من عليائه فذلك لأنه فقد سلطانه واندرج فى عداد الضعفاء الذين يحقرون لكونهم لايخشون . فأعز الابطال لدى نفوس الجماعة من كان شبيها بقيصر يخلبهم جلبابه ويرهبهم

سلطانه ويخيفهم صولجانه

الجماعة فى استعداد دائم للانتقاض على السلطان اذا ضعف وهى تحنى الرأس امام الوازع المنيع فان تناوبه الضعف والقوة عاملته بمقتضى مشاعرها المتطرفة وانتقلت من الخنوع الى الفوضى وثابت من الثورة الى الخنوع

ولقد يخطىء فى ادراك حقيقه الاجتماع من يظن ان الروح السائدة على الجماعات دائما هى الثورة والذى يوجب الشبهة فى ذلك انما هو تعسفها وقسوتها والحقيقة ان انفجار بركان الثورة منها وصدور اعمال التخريب عنها نزعة عرضية تخمد سريعاً لان خضوعها لفواعل الوراثة شديد بقوة تأثير الغرائز الفطرية فهى ميالة كل الميل الى المحافظة على الحال التى هى فيها ومتى تركت وشأنها ملت الفوضى وسارت بفطرتها الى الاستكانة والاستعباد هكذا كان اشد القوم تهليلا وترحيباً بالقائد بونابرت هم اشد رجال الثورة تغطرساً وتطرفا لما الجم جميع الحريات واثقل بيده التى من حديد

ومن الصعب ان نفهم التاريخ لا سيما تاريخ ثورة الامم اذ لم نكن على علم تام بتأصل ميل الجماعات الى المحافظة . تبغى

الجماعات استبدال اسماء نظاماتها وقد تثور الثورة العنيفة للوصول الى ذلك التغيير لكن لب هذه النظامات من حاجات الامة التى تلقتها عن الآباء والاجداد فهى ترجع اليه على الدوام . اما تقلباتها المستمرة فلا تتعلق الا بالمسائل العرضية والحاصل ان عاطفة المحافظة في الجماعات قوية كما هى عند أهل النشأة الاولى . يبلغ احترامها للتقاليد حد العبادة وتبغض أشد البغض بفطرتها كل جديد من شأنه تغيير أحوال معيشتها الحقيقية ولو ان سلطة الدمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع الميخانيكية واكتشاف البخار والسكك الحديدية ما بلغته الآن لاستحال تحقيق هذه المخترعات أو لكان ثمنها كثيراً من الثورات وقتل الالوف من النفوس . فمن حسن حظ الحضارة أن سلطة الجماعات ما بدأت في الظهور الا بعد ان تم تحقيق الاكتشافات العظيمة العلمية والصناعية

٥

اخلاق الجماعات

اذا أردنا من كلمة الاخلاق دوام الاحتفاظ بما اصطلح

العموم على مراعاته وقمع النفس عن الاسترسال مع نزعات حب الذات فليست الجماعة أهلا لشئ من ذلك لشدة نزقها وعدم ثباتها لكن اذا أدخلنا ضمن معنى هذا اللفظ التخلق مؤقتاً ببعض الصفات كاهمال الذات والاخلاص والتنزه عن الغاية وتضحية النفس والميل الى الانصاف جاز لنا ان تقول بان الجماعات أهل للتجمل باخلاق عالية.

أما السبب الذى حدا بالقليل من علماء النفس الذين بحثوا فى أحوال الجماعات الى الحكم عليها بانحطاط الاخلاق فهو كونهم قصروا بحثهم على جهة الشر فيها فلاحظوا ان اعمالها من هذه الجهة كثيرة .

نعم هذا هو الغالب فى الجماعات وعلته ان العصور الماضية تركت من شرها وخشونتها بقية اطمأنت فى قلب كل واحد منا والفرد لا يجرأ على الاسترسال مع هذه البقية حذر الوبال الذى تجره عليه . أما الجماعة فغير مسؤولة عن اعمالها فاذا هو انخرط فيها امن العقاب ونشط من عقاله فاتبع هواه . الا ترى انه لما لم يجرأ على الشر مع امثاله مال به الى الحيوان فواصله بالاذى . فشهوة الايذاء عند الجماعة من طبيعة شهوة

الصيد عند المغرمين به فهى تفترس الرجل اذا غضبت فلا تأخذها شفقة ولا يثنيها حنان وهم يجتمعون زمراً زمراً ليشهدوا بقلوب قاسية كلابهم تمزق بانيابها الوعل الضعيف والكل فى نظر الحكيم وحش مفترس

بقى ان الجماعة كما انها اهل لارتكاب القتل والتدمير بالنار وكل انواع الجرائم هى أهل للاخلاص فى العمل ولتضحية المنافع الذاتية والنزاهة بدرجة أرقى مما يقدر الفرد بل هى أقرب منه الى تلبية من يناديها باسم الشرف والفخار او باسم الدين والوطن الى حد المخاطرة بالأرواح وامثلة الصليبيين ومتطوعى سنة ٩٣ كثيرة يخطئها العد فى التاريخ فالجماعة دون الفرد اهل لعظائم الاعمال فى باب النزاهة والاخلاص وكم من جماعة تقدمت الى الموت فى سبيل معتقدات وافكار وكلمات كانت تكاد لا تفقه شيئاً من معانيها حتى ان الجماعة التى تقوم بالاعتصاب انما تعتصب لصدور الاشارة بذلك اليها اكثر من ميلها لنيل الزيادة فى الأجر الزهيد الذى اقتنعت به من قبل لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع وهى على التقريب السبب الوحيد فى عمل الفرد فليست

هى التى ساقت الجم الغفير من الجموع الى الحروب من دون ان يدرك السبب فيها ولا الغرض منها ولا هى التى جعلتهم يتساقطون على عجل بين يدى الموت كالقبرة يسحرها الصياد بمرآته فتدنو اليه

حتى الأوغاد كثيراً ما يكون انضمامهم الى الجماعة علة فى ارتقاء الملكات الفاضلة فى نفوسهم وقتاً ما كما لاحظه (تاين) فى قتلة شهر سبتمبر الذين كانوا يلتقطون كل ما وجدوه من الأموال ونفيس المتاع ويقدمونه للجنة مع انه كان من السهل عليهم اخفاؤه كذلك الجماعة التى وجهت على قصر (التويلرى) فى ثورة سنة ١٨٤٨ لم يتناول فرد منها شيئاً من تلك النفائس التى بهرتها وقد كان يكفيه قوت عدة ايام مع كونها كانت شديدة الغضب عنيفة الصخب مرزولة الأثر

نعم تهذيب الجماعة للفرد ليس هو القاعدة المطردة ولكنه كثير الوقوع حتى فى احوال أقل شدة من التى تقدم ذكرها وقد سبق لنا القول بأن جماعة المتفرجين يطلبون من المشخصين أفضل الاخلاق وارفع الفضائل ومن السذاجة ان تقول بأن الجماعة وان تكونت من افراد منحطى الاخلاق تظهر غالباً

بمظهر الكمال هكذا المنغمس فى الموبقات والديون والوغد يزمجرون غالباً اذا رأوا منظراً منافياً للآداب او سمعوا هذراً يعد تافهاً بجانب حديثهم الذى تعودوه فى ندواتهم

ثبت مما تقدم ان الجماعة كما انها تميل الى الدنايا هى اهل للتحلى بأخلاق عالية واذا صح ان يكون التنزه فى العمل والجلد والاخلاص المطلق لمبدأ وهمى او صحيح من الفضائل الادبية جاز القول بأن للجماعة فى الغالب من ذلك ما ليس لأعقل الحكماء الا قليلا حقاً هى تزاول تلك الفضائل لا عن قصد ولكن ماضرنا من هذا ونحن لا ينبغى لنا ان نشكو كثيراً من الافعال التى تصدر عن الجماعات بمحض غريزتها الا النادر لأنها لو تعقلت احياناً ورجعت الى منافعها القريبة منها ما قام على وجه البسيطة ركن من اركان الحضارة ولا كان للانسانية تاريخ يتلى

الفصل الثالث

افكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

—

(١) افكار الجماعات ـ الافكار الاساسية والافكار التبعية ـ في اجتماع الافكار المتناقضة ـ تغير الافكار العالية حتى تصل الجماعات الى ادراكها ـ أثر الافكار في الهيئة الاجتماعية بمعزل عما تشتمل عليه من الحقيقة

(٢) تعقل الجماعات ـ عدم قابلية الجماعات للتأثر بالمعقول ـ درجة تعقل الجماعة منحطة دائما ـ لا تشابه ولا تلازم بين الافكار التي تجمع الجماعات بينها الا في الظاهر

(٣) تخيل الجماعات ـ شدة تخيل الجماعة ـ انما تتخيل الجماعات بواسطة الصور وهي تتوارد عليها من غير جامعة بينها اصلا ـ انما يشتد تأثر الجماعات من الاشياء بالجهة الخلابة فيها ـ خلابة الاشياء وما فيها من الاقاصيص هما اساس المدنية الحقيقية ـ تخيل الجماعات كان على الدوام قوة رجال السياسة في الامم ـ كيف تبدو الحوادث التي لها قوة التأثير في تخيل الجماعات

١

افكار الجماعات

بحثنا فى كتابنا السابق عن تأثير الافكار فى تطور الامم وبينا ان كل مدنيـة تقوم على افكار اساسـية محدودة قلما تتجددوشرحنا كيف تمكن تلك الافكار من نفوس الجماعات وكيف انها لا تدخـل عليها الا بالصعوبة وما هى القوة التى تكون لها متى احتلتها ثم اوضحنا كيف ان التقلبات السياسية الـكبرى تحدث غالباً مما يطرأ على هذه الافكار الاساسية من التغيير وذلك كله بالاسهاب والشرح الوافى وعليـه لا نعود الى بسط الكلام فى هذا الموضوع مرة اخرى وانمـا نوجز القول فى الافكار التى هى من مقدور الجماعات والصورة التى تتناولها عليها

تنقسم هذه الافكار الى قسمين الأول الافكار العرضية الوقتية التى تولدها بعض الحوادث لساعتها كولوع بفرد من الافراد او مذهب من المذاهب والثانى الافكار الاساسية التى تـكتسب من البيئة والوراثة والرأى ثباتا مثـال ذلك

العقائد الدينية فى الماضى والافكار الدمقراطية والاجتماعية فى الزمن الحالى

فالإفكار الاساسية اشبه بالماء الذى يجرى الهوينا فى النهر. والافكار العرضية تشبه الامواج الصغيرة المتغيرة على الدوام التى تضرب وجه ذلك الماء وهى مع قلة اهميتها اظهر أمام العين من سير النهر نفسه

وقد اخذت الآن الافكار الاساسية التى عاش بها آباؤنا فى الاضمحلال شيئاً فشيئاً ففقدت ما كان لها من المتانة والرسوخ وتزعزعت من اجل ذلك النظامات التى كانت تقوم عليها وفى كل يوم تظهر افكار وقتية كثيرة مما ذكرنا الا ان القليل منها هو الذى ينمو وهو الذى يكون له فى المستقبل تأثير كبير

وكيفما كانت الافكار التى تلقى فى نفوس الجماعات فانها لا تسود ولا تتمكن الا اذا وضعت فى شكل قواعد مطلقة بسيطة لتبدو لها فى هيئة صورة تحسنها وهو الشرط اللازم لأن تحل من نفوسها محلا كبيراً وليس بين هذه الافكار المصورة اقل رابطة عقلية من التشابه او التلازم فيجوز ان يحل بعضها

محل بعض كالزجاجات السحرية التي يستخرجها العامل واحدة فواحدة من صندوقها ذلك هو السبب في قيام الافكار المتناقضة بجانب بعضها عند الجماعات وعلى حسب الاحوال تكون الجماعة تحت تأثير أحد هذه الافكار التي اجتمعت في مدركتها فتأتي باشد الاعمال تناقضاً وتضاربا

هذه حال ليست خاصة بالجماعات وحدها بل هي تشاهد أيضاً في الافراد لا فرق في ذلك بين من لا يزال على الفطرة ومن أشبههم بناحية من نواحي العقل كالذين غلت ثورة الدين في رؤوسهم بل اني شاهدت ذلك بدرجة توجب الاستغراب عند بعض مستنيري الهندستان الذين تربوا في مدارسنا الاوروبية ونالوا جميع شهاداتها فرأيت انه ارتكز على مجموع معتقداتهم الدينية المستديم أو افكارهم الاجتماعية الوراثية مجموع افكار غريبة لا علاقة بينها وبين الاولى وذلك من دون أن تؤثر فيها وكانت هذه او تلك تظهر في الخارج طبقاً لمقتضى الحال بجميع مشخصاتها من أعمال وأقوال فيبدو الفرد منهم مناقضاً لنفسه كل التناقض على انه تناقض في الواقع ظاهر أكثر مما هو حقيقي لان الافكار الموروثة هي

التى لهـا فى الفرد قوة تصدر عنها أفعاله وانما تكون أفعال المرء متناقضة حقيقة اذا تجاذبتـه قوتان وراثيتان جاءتا من اختلاط المصاهرة بين عنصرين مختلفين ولا أطيل الكلام هنا على هذه المشاهدات وان كانت أهميتها فى علم النفس كبيرة جداً فانى أحسب أنه يجب لادراكها عشر سـنين يقضيها الباحث سائحاً بين الأمم

ولما كانت الجماعات لا تقبل الافكار الا اذا صارت بسيطة جداً لزم عليه ان هذه الافكار لا تنتشر ولا تصير عمومية الا اذا تغيرت فى الغالب تغـيراً تاما واكثر ما يشاهد ذلك فى الافكار الفلسفية او العلمية الراقية فانه لا بد من تغيير عظيم فيها حتى تهبط من طبقة الى طبقة الى مستوى الجماعات . ويختلف التغيير باختلاف الجماعات اوالامم التى هى منها وهو على كل حال صيرورتها صغيرة بسيطة فاذا نظرنا الى الجهة الاجتماعية نرى ان ليس من الافكار ما هو راق ومنها ماهو وضيع اذ كيفما كان الفكر جليلا راقياً فانه بوصوله الى الجماعات وتأثيره فيها يتجرد عن رقيه وجلاله

على ان منزلة الفكر لا اهمية لها من الوجهة الاجتماعية اذ

المعول عليه انما هو الأثر الذى ينتج عنه الا ترى ان الافكار الدينية فى القرون الوسطى والافكار الديمقراطيه فى القرن الماضى والاجتماعية فى زماننا هذا ليست رفيعة بمقدار ما قد يظهر فان الفلسفة لا تعتبرها الاّ أغاليط صغيرة ومع ذلك فانه لاحد لأثرها فيما مضى وستكون ولاحد له فيما يأتى ستبقى هى العوامل الاساسية فى حياة الدول والممالك زمناً طويلا

ثم ان الفكر وان تغير حتى صار تناوله فى مقدور الجماعات لا يظهر أثره الاّ اذا دخل فى عداد الغرائز وامتزج بالنفس فصار من المشاعر وهو ما يقتضى زمناً طويلا ولذلك وسائل سنأتى على بيانها فى موضع آخر

فلا يتوهمن القارئ ان أثر الفكر يظهر متى تبينت صحته حتى عند ذوى العقول النيرة . يتضح ذلك لمن عرف ضعف تأثير صحة الفكر فى السواد الاعظم من الناس بعد ظهورها جلياً . نعم اذا تم الوضوح جاز الاعتراف من السامعين ان كانوا من المستنيرين غير انهم لقرب عهدهم بالايمان لا يلبثون ان ترجعهم فطرتهم الى معتقدهم القديم فاذا لاقيتهم

بعد قليل من الايام رايتهم يسوقون اليك حجتهم الأولى فى ثيابها الأولى بلا تغيير لانهم خاضعون لسلطان افكار اصبحت بحكم الزمان ملكات فطرية وهى وحدها الفعالة فى موجبات اعمالنا واقوالنا والجماعات لا تشذ عن هذه القاعدة

لكن متى توفرت الوسائل العديدة وتمكن بها الفكر من نفس جماعة كان له قوة لا تعارضها قوة وانتج آثاراً متعددة لا بد من الوضوح لحكمها . قطعت الافكار الفلسفية التى ادت الى الثورة الفرنساوية فى سيرها نحو نفوس الجماعات ما يقرب من مائة عام وكل يعلم مقدار قوتها الجارفة بعد ان تمكنت منها . هبت امة بتمامها لنيل المساواة الاجتماعية وتحقيق الحقوق المعنوية واقامة صرح الحريات التى تنتهى اليها الآمال فزعزعت التيجان وجعلت عالى الغرب سافله اذ تساجلت الامم بالحروب عشرين عاما وشهدت القارة الاوروبية من سفك الدماء وقتل النفوس ما ينخلع له قلب تيمورلنك وجنكيزخان مشهد لم ير البشر قبله الى اى حد يصل هول الفكر اذا انبثق

وكما ان وصول الافكار الى نفوس الجماعات يقتضى زمناً

طويلا كذلك خروجها منها لهذا كانت الجماعات دائما متأخرة فى افكارها عدة اجيال عن الفلاسفة والعلماء وكل رجال السياسة يعلمون اليوم ما فى الافكار الاساسية المتقدم ذكرها من الخطأ ولكنهم يعلمون ان سلطانها لا يزال متمكنا لذلك هم مضطرون فى قيادة الأمم الى مراعاة مقتضياتها ولما يعتقدوا بشئ من صحتها

٢

تعقل الجماعات

—

لا يمكن القول مطلقاً بأن الجماعات لا تتعقل ولا تتأثر بالمعقول غير ان طبقة الأدلة التى تقيمها هى تأييداً لأمر من الأمور أو التى تؤثر عليها منحطة جداً من الجهة المنطقية فلا يصدق عليها اسم الدليل الا من باب التشبيه

وتلك الأدلة المنحطة مبنية على قاعدة القياس كالأدلة الراقية الا ان رابطة الافكار التى تقرنها الجماعات بعضها

من حيث المشابهة او التلازم ظاهرية لا حقيقية فهي تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة في ذهن الرجل الاسكيماوي الذي عرف بالتجربة ان الثلج وهو جسم شفاف يذوب في الفم فاستنتج من ذلك ان الزجاج وهو شفاف ايضاً يجب ان يذوب في الفم وكالمتوحش الذي يتصور ان اكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته الى الآكل او كالأجير الذي هضم المعلم حقه فقال بأن جميع المعلمين هضامون للحقوق

والحاصل ان تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين اشياء متخالفة لا رابطة بينها الا في الظاهر والانتقال الفجائي من الجزئي الى الكلي ومن التخصيص الى التعميم بلا تروٍ والادلة التي يقدمها اليها اولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز لانها هي الادلة التي تؤثر فيها بخلاف سلسلة من الادلة المنطقية فانها لا تدركها بحال لذلك صح القول بأنها لا تتعقل او هي تتعقل خطأ وانها لا تتأثر بالمعقول وكثيراً ما يعجب الانسان عند مطالعة بعض الخطب من التأثير العظيم الذي احدثته في سامعيها على ما بها من الضعف والركاكة وكأني بالمتعجب وقد نسي ان تلك الخطب انما صيغت لتؤثر في الجموع لا ليقرأها

العلماء . فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التى تجذبها فاذا نجح فذلك ما أراد ولو القيت خطب فى عشرين مجلداً بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما احدثته تلك الكليمات التى دخلت فى الرؤوس المراد اقناعها

وغنى عن البيان ان عدم قدرة الجماعات على التعقل الصحيح يذهب منها بملكة النقد اى يجعلها غير قادرة على تميز الخطأ من الصواب وان لا تحكم حكماً صحيحاً فى امر ما . اما الافكار التى تقبلها هى فهى التى تلقى اليها لا التى يناقش فيها والذين لا فرق بينهم وبين الجماعات فى هذا الباب كثيرون وسهولة انتشار بعض الافكار وصيرورتها عامة آتية على الاخص من عدم قدرة السواد الاعظم على اكتساب الرأى من طريق النظر الذاتى

٣

تخيل الجماعات

الجماعات كالذوات التى لا تتعقل فى حدة التخيل وفعله

الدائم وفى قابليتها للتأثر الشديد فالصورة التى تحضرها من انسان او واقعة او رزء تكاد تؤثر فيها كما لو كانت الحقيقة بعينها وحال الجماعات اشبه بحال المنوّم الذى تقف فيه حركة العقل هنيهة فتحضر فى ذهنه صور مؤثرة جداً لكنها تزول بمجرد التأمل فيها ولما كانت الجماعات لا تعرف التعقل ولا التأمل كانت كذلك لا تعرف ان شيئاً ما غير معقول وغير المعقول هو الاشد فعلا فى النفس غالباً

لهذا كانت الجهة الغريبة والقصصية مما يقع تحت حواس الجماعة اكبر مؤثر فيها واذا دققنا النظر فى حضارة ما وجدناها انما تقوم على الغريب والقصص كذلك التاريخ للظاهر فيه شأن اكبر من الواقع والوهمى سائد على الحقيقى

لا تتعقل الجماعات الاّ بالتخيل ولا تتأثر الاّ به فالصور هى التى تفزعها وهى التى تجتذبها وتكون سبباً لافعالها

لذلك كان التشخيص فى الملاهى من اكبر المؤثرات فى الجماعات دائماً لأنه يمثل لها الأشياء فى أجلى صورها فكانت عامة الرومانيين ترى السعادة كل السعادة فى العيش والملهى ولا تبتغى بعد ذلك شيئاً وقد مرّت القرون وتعاقبت الدهور

ولم يتغير هذا الخيال الا قليلا ولا يزال التمثيل أكبر مؤثر في الجماعات من كل الطبقات فجميع الحاضرين يتأثرون بمؤثر واحد وان كانوا لا ينتقلون على الفور من الشعور الى العقل فذلك لان الفرد منهم وان بلغ منه عدم الالتفات للواقع ما بلغ لا ينسى انه في عالم الخيال وانه انما ضحك أو بكى متأثرا بحوادث تصورية على انه قد يقع ان الصورة تفعل في النفس فعل المؤثرات الحقيقية فتدفعها الى العمل اذ كثيراً ما سمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائما بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفا عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لانه ارتكب تلك الجرائم الوهمية وهذا فيما أرى من أكبر الادلة على حالة الجماعات العقلية وبالاخص على سهولة التأثير فيها فللوهمي عليها من ذلك ما للحقيقي تقريباً وهي ميالة ميلا ظاهراً الى عدم التمييز بينهما

يقوم سلطان الفاتحين وتبنى قوة الممالك على تخيل الامم ولا تنجر الجماعات الا بالتأثير في ذلك التخيل وكل حوادث التاريخ العظيمة كايجاد البوذية وتشييد اركان المسيحية والاسلام

وقيام البروتستانتية والثورة فيما مضى وكاغارة الإفكار الاشتراكية المزعجة في هذه الايام انما هي نتائج قريبة أو بعيدة لتأثرات شديدة في تخيل الجماعات

ذلك هو العلة في ان جميع اقطاب السياسة في كل عصر وفي كل أمة حتى اشدهم استبداداً اعتبروا تخيل أممهم آساساً تقوم عليها قوتهم وما فكروا يوماً في أن يحكموا الناس بدونه

قال نابليون في مجلس شورى الحكومة (انني اتممت حرب الفندائيين لما تكثلكت واستوليت على مصر اذ اسلمت وتوجت بالظفر في حرب ايتاليا لاني قلت بعصمة البابا ولو كنت احكم شعباً يهوديا لاعدت معبد سليمان) ويظهر لي انه لم يقم منذ الأسكندر الاكبر وقيصر بين عظماء الرجال من عرف كيف يكون التأثير في تخيل الجماعات مثل نابليون فقد كان ذلك التأثير همه الدائم ما نسيه في انتصاراته وخطبه واحاديثه ولا في عمل من اعماله وكان يفكر فيه وهو على سرير موته

فاما كيفية التأثير في تخيل الجماعات فسنذكرها وانما نكتفي هنا بالاشارة الى ان ذلك لا يكون ابدا بمخاطبة الادراك والعقل اعني بطريقة البحث والتقرير بدليل ان

(انطوان) لم يهج نفوس الامة على قاتل قيصر بقوة البديع وعلم البيان بل اثارها لما قرأ وصية المقتول واشار بالقوم الى جثته

الذى يؤثر فى خيال الجماعات هو مايتمثل لها فى صورة اخاذة جلية مجردة عن الشرح والذيول غير مصحوبة الا بما فيه غرابة او سر مكنون كانتصار باهر او معجزة بالغة او جرم فظيع اوامل دونه الامل فينبغى ان ترى الاشياء جملة على علاتها وان لا يوضح كنهها ابداً لان مائة جرم صغير او مائة رزء صغير لا تؤثر اقل تأثير فى تصور الجماعات لكن جرماواحداً كبيراً او رزءاً كبيراً واحداً يؤثر فيها اثراً شديداً وان قل ضرره كثيراً عن ضرر مائة الرزء كلها وبرهانه ان القوم كادوا لا يشعرون بضرر النزلة الوافدة التى اخنت على باريس منذ بضع سنين فاماتت من سكانها خمسة آلاف نسمة فى بضعة اسابيع لان هذه المقتلة لم تبد امام الجمهور فى صورة بينة بل علموها من الاحصاآت اليومية التى كانت تنشر فى حينها ولو ان حادثا واحداً قتل بسببه خمسمائة بدل تلك الآلاف الخمسة وكان ذلك فى يوم واحد وفى الطريق العام

كما لو سقط برج ايفل لتأثروا منـه تأثراً عظيما

انقطعت اخبار احدى بواخر الاطلانطيق فظنّ انها غرقت وكان لذلك فى خيال الجماعات تأثير كبير دام ثمانيـة أيام ودلّ الاحصاء الرسمى على غرق ٨٥٠ مركب شراعى و٢٠٣ مركب تجارى فى سنة ١٨٩٤ وحدها ضاع معها من الأرواح والأرزاق مالا تقدر قيمته وما هو اكبر من قيمة تلك الباخرة بما فيها لو فقـدت ومع ذلك لم يشتغل الناس بهذه الخسارة لحظة واحدة

نتج من هذا ان الحوادث ليست هى التى تؤثر بذاتهـا فى تخيل الجماعات بل المؤثر هو كيفية وقوعها وكيفية تمثيلها اعنى أنه يجب ان يتكون من مجموعها صورة أخاذة تملأ الفكر وتضيق عليـه ومن عرف كيف يؤثر فى تخيل الجماعات عرف كيف يقودها .

الفصل الرابع

الصبغة الدينية التي تتكيف بها اعتقادات

الجماعات

ما هو الشعور الديني — الشعور الديني مستقل عن عبادة الالوهية ـ مميزات الشعور الديني ـ قوة المعتقدات التي لها صبغة دينية ـ امثلة شتى ـ في أن آلهة العامة لم تزل ـ في الصور الجديدة التي تظهر بها تلك الآلهة ـ الشكل الديني للالحاد ـ اهمية هذه المبادىء من الجهة التاريخية ـ في ان الاصلاح او قيام البروتستانتية وواقعة صانت بارتلمي وزمن (الهول) وجميع الحوادث المماثلة هي أثر مشاعر الجماعات الدينية لا أثر ارادة فرد واحد

—

بينا ان الجماعات لا تتعقل وانها تقبل الافكار او ترفضها جملة وانها لا تطيق المعارضة ولا تحتمل المناظرة وان المؤثرات

التى تفعل فيها تحتل منها دائرة الادراك كلها وسرعان ماتنتقل من التأثر الى الفعل وانها اذا حسن التأثير فيها تضحى نفوسها فداء للمقصد التى وجهت اليـه وكذلك عرفنا ان مشاعرها شديدة متطرفة فالميل عندها لا يلبث ان ينقلب عبادة والنفور لا يكاد يدخل عليها حتى يصير سخيمة وتلك البيانات العامة تشعر بكنه اعتقاداتها

اذا دققنا النظر فى اعتقاد الجماعات ايام سيادة الأديان او فى أزمنة الثورات السياسية الـكبرى كالتى حصلت فى القرن الماضى رأينا انها تتصبغ دائماً بصبغة مخصوصة لا يسعنى التعبير عنها بأحسن من تسميتها بالشعور الدينى

ولهذا الشعور مميزات بسيطة للغاية كعبادة ذات يتوهم انها فوق الذوات والخوف من القوة الخفية التى تظن لها والخضوع الاعمى لأوامره واستحالة البحث فى تعاليمـه والرغبـة فى نشرها والنزوع الى معاداة من لا يقول بهـا ومتى تكيف الشعور بهـذه الصفة فهو من طبيعة الشعور الدينى سواء كان محله ألهاً لا يرى او معبوداً من الحجر او من الشجر او بطلا من الشجعان او رأيا سياسياً فـكله شعور تدخل فيه المعجزات

وخوارق العادات والجماعات ترى ان في كل ما خلب لبها واسترعى قلبها قوة دونها قوة البشر .

وليس المتدين هو الذى يعبد الهاً بل متى اسلم الأنسان عقله وارادته وما فيه من حماسة وتعصب لخدمة مبدأ او ذات جعلها غاية مقصوده ومرمى افكاره وأقواله فهو دائن بما توجه اليه

ومن المعلوم ان التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان على الدوام كل شعور ديني ويلازمان كل من اعتقد انه ملك ناصية السعادة في الحياة الدنيا او في الآخرة وهاتان الصفتان توجدان في كل جماعة تحركت بأحد المعتقدات فقد كان اليعاقبة زمن (الهول) متدينين كما كان أهل الاضطهاد متدينين ومنبع حماسة الفريقين في القسوة واحد

كذلك تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع الاعمى والتعصب الوحشي والاكراه في الدعوة وكلها صفات من لوازم الشعور الديني وما البطل الذى تهلل الجماعة له الا اله في نظرها . هكذا كان نابوليون مدى خمسة عشر عاماً ولم يكن لمعبود سواه عباد أشد اخلاصاً من الذين عبدوه ولم يسهل على معبود

قيادة النفوس الى حتفها أكثر منه وما كان لآلهة الوثنية والنصرانية سلطان على القلوب أعز من سلطانه

ان جميع موجدى الديانات ومؤسسى المذاهب السياسية لم يقيموها الا لانهم تمكنوا من احداث التعصب الذى يجعل الانسان يرى سعادته فى العبادة والطاعة ويهيئه لأن يهب حياته لمعبوده . هكذا كان الحال فى كل وقت وزمان ولقد أصاب موسيو (فوستان دى كولنج) حيث قال فى كتابه على بلاد الغلوا الرومانية ان الدولة الرومانية لم تدم بالقهر والقوة ولكن بما وجد فى النفوس من الاعجاب بها اعجاباً دينياً قال (ولم يرو لنا التاريخ ان دولة مكروهة من شعوبها دامت خمسة قرون والا لتعذر ان نفهم كيف ان ثلاثين كوكبة من جند الامبراطورية تمكنوا من قهر مائة مليون على الطاعة) انما اطاع القوم لان الامبراطور الذى كان يمثل عظمة الرومان كان يعبد عبادة الآلهة باتفاق فكان له فى كل قرية حتى الحقيرة محراب . وقد سرى فى المملكة من أولها الى آخرها دين جديد مناسكه عبادة القياصرة . وقبل ظهور المسيحية ببضع سنين أقامت بلاد الغلوا كلها وكانت ستين

مدينـة هيكلا للامبراطور (اوغسطس) بالقرب من مدينة (ليون) وكان لقسس هـذا الهيكل المقام الأول فى نفوس سكان تلك البلاد ومحال أن يكون الباعث على ذلك كله الخوف أو الخنوع فان الخنوع لا يوجد فى أمة بتمامها ثم هو لا يدوم ثلاثة قرون وما كانت البطانة هى التى تعبد الامـير وحدها بل روما جميعها بل الغلوا كلها بل بلاد الاندلس واليونان وآسيا

ليس لفاتحى النفوس فى هذا الزمان معابد وهيا كل لكن لهم صور وتماثيل والعبادة التى يعبدون بها لا تخالف كثيراً ما كانوا به يعبدون ومعرفة فلسفة التاريخ تتوقف على اجادة معرفة هذا المبحث فى علم روح الجماعات . من لم يكن الهاً لها فليس شيئاً مذكوراً

لا يقولن قائل تلك اوهام كانت فى الاعصر الماضية فبددها العقل فى هذه الايام لان العقل لم يكن لينتصر فى محاربة الشعور ابداً نعم لم تعد الجماعات تطيق اسم الالوهية والدين الذى دانت لحكمه ذلك الزمن المـديد ولكن معبوداتها لم تكثر كثرتها منذ مائة عام وهى لم تقم للآلهة السابقين من

التماثيل والمحاريب مقدار ما أقامت لآلهة هذه الايام والذين نقبوا عن الحركة العمومية المسماة (بولنجية) التى حصلت فى السنين الاخيرة يعلم سهولة ظهور الشعور الدينى فى الجماعات فلم يكن من فندق أو قهوة فى قرية الاً وفيها صورة البطل وكانوا ينسبون اليه القدرة على ردالمظالم كلها ومداواةالآلام كلها وكان الالوف من الناس على استعداد لتضحية حياتهم من أجله ولو كان فى اخلاقه مقوم لشهرته ولو قليلا لنال المكان الأرفع فى التاريخ

لذلك نرى من الفضلة تكرار انه لا بد للجماعات من دين مادامت جميع المعتقدات السياسية او الالهية اوالاجتماعية لا تطمئن عندها الا اذا لبثت ثوب الدين الذى يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين بل لو أمكن ادخال عدم الاعتقاد فى الجماعات لاشتد تعصبهم فيه كأنه معتقد دينى ولصار فى الخارج دينا يتعبد به الناس ومن الامثلة الغريبة على ما تقول ما كان من امر تلك الفئة القليلة صاحبة مذهب الوضعيين فقد وقع لها ما وقع للرجل العدمى (نهيلست) الذى روى لنا العلامة (رستوفيسكى) قصته قال اشرق ذات

يوم نور العقل على ذلك العدمي فعمد الى صور الآلهة والقديسين التي كانت تزين احد المعابد وحطمها واطفأ الشموع ووضع مكان الصور مؤلفات بعض الفلاسفة الذين لا يعتقدون مثل (بوخنر) و (موليشوت) ثم تولاه التقى فاوقد الشموع حول هاتيك الكتب فمحل اعتقاده الديني كان قد تبدل ولكن مشاعره الدينية ما تبدلت ابداً

وعليه لا يدرك الباحث أهم الحوادث التاريخية تمام الادراك الاّ اذا وقف على الصبغة الدينية التي ينتهي حتما اليها اعتقاد الجماعات . ومن الحوادث الاجتماعيه ما ينبغي البحث فيه على طريقة علماء النفس لا على طريقة الطبيعيين فان مؤرخنا العظيم (تاين) لم ينظر في الثورة الفرنساوية الاّ نظراً طبيعياً لذلك فاتته حقيقة الحوادث غالباً نعم لم تفته من الوقائع فائتة ولكنه غفل عن البحث في روح الاجتماع فلم يصل الى علل ما ثبت منها وقد هالته الوقائع بما اشتملت عليه من الدماء والتوحش والقسوة فلم ير في ابطال ذلك الزمن الكبير الاّ قطيعاً من المتبربرين السفاحين انطلقوا وراء شهواتهم ولم يجدوا امامهم ما يصدهم عما كانوا يشتهون

على انه لا سبيل لادراك حقيقة ما كان في الثورة الفرنساوية من القسوة وسفك الدماء والحاجة الى نشر الدعوة واعلان الحرب على جميع الملوك الاّ اذا فطن الباحث انها اى الثورة أثر معتقد دينى جديد حلّ فى نفوس الجماعات ومثل ذلك أيضاً كانت قيامة الاصلاح (البروتستانتية) ومقتلة صانت بارتلمى و (الاضطهاد) و (الهول) فكلها فظائع ارتكبتها الجماعات المتحمسة بشعور من شأنه ان يدفع الذى حلَّ فى قلبه الى استعمال النار والحديد لاستئصال كل ما يعترض قيام المعتقد الجديد من دون ان تأخذه رحمة ولا حنان لذلك كانت وسائل الاضطهاد هى وسائل جميع المعتقدين الحقيقيين ولو انهم استعملوا غيرها ما كانوا من الموقنين

ولا تظهر فى الوجود امثال الانقلابات التى مرّ ذكرها الاَّ اذا قذفت من جوف الجماعة وليس فى استطاعة اكبر المستبدين اثارتها والمؤرخون الذين رووا لنا ان الملك هو السبب فى واقعة صانت بارتلمى كانوا يجهلون روح الجماعات وروح الملوك معاً لان مثل هذه المظاهرات لا تخرج الاّ من قلب الجماعات ولا يقدر اكبر الملوك وأشدهم استبداداً على اكثر من

تعجيلها او تأجيلها فليس الملوك هم الذين احدثوا واقعة صانت بارتلمى ولا حروب الدين كما ان (روبسـبير) و (دانتون) و (صانت جوست) ليسوا هم الذين احدثوا (الهـول) بل نجد على الدوام وراء هذه الحوادث روح الجماعات لا سلطة الملوك

الباب الثانى

افكار الجماعات ومعتقداتها

—

الفصل الأول

العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وافكارها

—

العوامل التحضيرية لمعتقدات الجماعات ـ في ان ظهور معتقدات الجماعة نتيجة اختمار سابق ـ البحث عن العوامل المختلفة فى تلك المعتقدات

(١) الشعب وما له من التأثير الاول ـ فى انه مستودع ما ترك الآباء

(٢) التقاليد وكونها خلاصة روح الشعب ـ اهمية

التقاليد من الجهة الاجتماعية ـ في انها تصير مضرة بعد ان كانت لازمة ـ في ان الجماعات اشد احتفاظاً للافكار التقليدية

(٣) الزمن وكونه يهيء استقرار المعتقدات ثم زوالها ـ في انه هو الذى يولد النظام من الفوضى

(٤) النظامات السياسية والاجتماعية ـ في الخطأ في تقدير تأثيرها ـ في ان تأثيرها ضعيف جداً ـ في انها آثار لا مؤثرات ـ في انه لا يتيسر للامم ان تختار منها ما تظنه الا حسن ـ في ان النظامات عناوين يندرج تحت الواحد منها أمور متخالفة بالمرة ـ كيف توجد النظامات ـ في انه لابد لبعض الامم من بعض نظامات رديئة نظريا كجمع السلطة وتوحيدها

(٥) التعليم والتربية ـ خطاء الناس في افكارهم الحالية من حيث تأثير التعليم فى الجماعات ـ بعض ايضاحات من الاحصاآت ـ التربية اللاتينية تضعف الاخلاق ـ فى التأثير الذى يمكن ان يكون للتعليم ـ امثلة عن امم مختلفة

فرغنا من البحث فى تركيب القوة المدركة عند الجماعات وعرفنا كيف تشعر وكيف تفكر وتتعقل ونريد الآن أن نبحث فى كيفية تولد آرائها واعتقاداتها وكيفية حلول هذه الآراء والمعتقدات واستقرارها فى نفوسها

العوامل التي تولد الآراء والاعتقادات فى الجماعات قسمان بعيدة وقريبة

فاما العوامل البعيدة فهى التى تهيء الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون بعض اعنى انها تعد التربيــة التى تنبت فيها افكار جديدة ذات قوة وأثر مدهشين وظهور تلك الافكار يكون فجأة فقد تشبه فى انبثاقها والعمل بها انقضاض الصاعقة الاّ ان الواقع انها نتيجة عمل سابق طويل ينبغى البحث عنه

واما العوامل القريبة فهى التى تأتى بعد هذا العمل الطويل ولا أثر لها بدونه ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعى الى الفعل اعنى انها تقوم الفكر وتقذف به الى الخارج مع جميع مايحتمل من النتائج فهى التى تدفع الجماعات فجأة الى القيام بما تمكن من نفسها من الاعمال وهى علة القلاقل والاعتصابات والتفاف الجم الغفير حول رجل يرتفع بذلك الى الأوج او ضد حكومة تهبط الى الدرك الاسفل

تتعاقب هــذه العوامل بقسميها فى جميع حوادث التاريخ العظيمة ففى الثورة الفرنساوية وهى اكبر مثال لتلك الحوادث

كانت العوامل البعيدة هى كتب الفلاسفة وعسف الشرفاء وتقدم العلم وهى التى هيأت روح الجماعات ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة الملك فى اجراء اصلاحات لا تعد شيئاً كبيراً وهى التى أثارت الجماعات بالسهولة

ومن العوامل البعيدة ماهو عام بمعنى انه يؤثر فى معتقدات كل جماعة وفى اراءها وهى الشعب والتقاليد والزمن والنظامات والتربية

وسنبحث فى شأن كل واحد من هذه العوامل

١
الشعب

بدأنا به لأن له المقام الأول بين العوامل فله وحده من الاثر ما يربو على آثارها كلها. وقد وفينا البحث فيه حقه فى كتابنا (النواميس النفسية لتطور الأمم) حتى لم يعد من المفيد أن ترجع اليه هنا اذ بيناهناك ما هو الشعب من حيث التاريخ وكيف انه متى كملت مميزاته يصير بمقتضى الوراثة نفسها ذا قوة عظمى وتكون له روح ترجع اليها اعتقاداته

ونظاماته وفنونه وجميع عناصر مدينته كذلك بينا ان قوة الشعب تبلغ حداً يتعذر معه انتقال أحد هذه العناصر من أمة الى أخرى بدون أن يتغير تغيراً عاماً وخصصنا اربعة فصول منه لشرح هذه القضية لكونها حديثة العهد ولأنه يصعب فهم التاريخ بدونها هناك يرى القارىء انه رغم ظواهر الحال التى قد توجب اللبس يستحيل ان تنتقل اللغة أو الدين أو الفنون أو أى عنصر من عناصر المدنية من أمة الى أخرى الاّ اذا أصابها التغير والتحول. نعم ان البيئة والاحوال والحوادث تشخص مقتضيات الزمن الذى هى فيه وقد يكون لها تأثير كبير لكنه تأثير عرضى على الدوام اذا تضارب مع مقتضيات الشعب اعنى مع سلسلة تلك المؤثرات الوارثية

على انا سنعود الى ذكر شأن الشعب فى كثير من فصول هذا الكتاب ونوضح انه لقوته يسود على غيره من مميزات روح الجماعات وان ذلك هو السبب فى اختلاف جماعات كل بلد مع جماعات البلد الآخر من جهة المعتقدات وخطة العمل اختلافا كبيراً وكذا المؤثرات التى تتأثر بها

٢
التقاليد

التقاليد عبارة عن ماضى الامة فى افكارها وحاجاتها ومشاعرها فهى تشخص روح الشعب ولها فى القوم تأثير عظيم

تقدم علم تركيب الاجسام من يوم ان بين علم التكوين مقدار تأثير الماضى فى تطور الكائنات وسيتقدم علم التاريخ ايضاً حينما ينتشر هذا الاكتشاف لان انتشاره لم يعم بدليل ان كثيراً من اقطاب السياسة لا يزالون على افكار أهل القرن الماضى ممن كانوا يتخيلون انه يتيسر للأمة ان تنخلع عن ماضيها وتنشىء نفسها من جديد غير مستهدية فى ذلك الاّ بنور العقل وحده وفاتهم ان الأمة جسم منظم اوجده الماضى فهى كغيرها من الاجسام لا تستطيع الانتقال من طور الى طور الاّ بتراكم آثار الوراثة فيها على مهل

والذى يقود الناس ولا سيما اذا اجتمعوا انما هى التقاليد وهم لا يسهل عليهم ان يغيروا منها سوى الاسماء والاشكال

وليس هـذا مما يوجب الأسف اذ لولا التقاليـد ما كان هناك شيء يقال له روح قومية ولا حضارة ممكنة الا ترى ان هم الناس منذوجدوا ان يكون لهم شنشنة تقاليدفاذا زال نفعها اجتهدوا فى هدمها والحاصل انه لا مدنية الاّ بالتقاليد ثم الرقى موقوف على هدمها . والصعوبة فى ايجاد التوازن بين التقلب والبقاء الاّ انهاصعوبة كبرى فاذاتأصلت فى الأمة عادات وتمكنت منها اخـلاق عدة اجيال تعذر عليها الانتقال واصبحت كالأمة الصينية غير قادرة على التحسن . ولا تؤثر فيها الثورات العنيفة لانها لا تأتى الاّ باحـدى نتيجتين فاما ان الحلقات التى تقطعت من السلسلة تنضم وتلتحم ببعضها فيعود الماضى الى التربع فى سـيادته بدون تغيـيرما . واما ان تبقى تلك الحلقات منثورة فهى الفوضى وخليفتها التقهقر والانحطاط

لذلك كان اكبر النعم التى يجب ان تصبو اليها الامة هى المحافظة على النظامات التى ورثتها وان تسير فى الانتقال بها من طور الى اكمل منه على مهل وبلا اهتزاز ذلك مطلب عزيز المنال ولم يفز به الاّ دولة الرومان فى الازمان الخاليـة

وأمة الانكليز فى الازمان الحاضرة

وأشد الناس محافظة على الافكار التقليدية واصعبهم مراساً فى معارضة من يحاول تبديلها هى الجماعات خصوصاً الجماعات التى تتكون منها فئات معينة وقد سبق لى ان افضت الكلام على تمسك الجماعات بالماضى وبينت ان اشد الثوارت عنفاً لا تؤدى الا الى تغيير فى الالفاظ ومن شهد فى آخر القرن الماضى هدم الكنائس وطرد القسوس واعدامهم والاضطهاد العام الذى كان واقعاً على اهل الكثلكة كان يظن ان السلطة الدينية قد بادت ولم يبق لها أثر لكن لم يمض الا بضع سنوات حتى قام الناس ينشدون معابدهم فاضطرت الدولة الى اعادة الدين الذى طمست بالامس معالمه . ومما يوضح ذلك بأجلى بيان ما ذكره (فوركروا) أحد رجال الثورة فى تقريره اذ ذاك ونقله عنه (تاين) قال « ان ما هو مشاهد فى كل مكان من اقامة صلاة يوم الاحد والتردد على الكنائس يدل على ان مجموع الفرنساويين يطلب الرجوع الى عاداته الاولى ولم يعد فى الامكان مقاومة هذا الميل فى الأمة لان السواد الاعظم فى حاجة الى الدين والى العبادة والى القسوس

ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر ـ وهو خطاء وقعت انا فيه ايضاً ـ القول بامكان ايجاد تعليم عام يكفى لازالة الاوهام الدينيـة ووجه الخطأ ان فى الدين سلواناً للقسم الاكبر من المساكين ومن أجل ذلك يجب ان تترك للامة قسوسها ومعابدها وعبادتها »

هكذا اختفت التقاليـد برهة ثم استردت سلطانها وهو مثل ليس كمثله مثل يبين سلطان التقاليد على النفوس وليست الاشباح التى لا يستهان بهـا هى التى تسكن المعابد ولا فى القصور يقيم عتاة المستبدين اولئك يبادون فى طرفة عين انما الذى لا قبل لنا به هم اولئك الارباب الذين تمكنوا فى النفوس فتحكموا فى الارواح فلا يزول ملكهم الا بفعل الزمان رويداً رويداً وجيلا بعد جيل

٣
الزمان

أهم العوامل فى المسائل التى يبحث عنها علم الاجتماع هو الزمان كما انه كذلك فى المسائل التى يبحث عنها علم

الاجسام المنظمة . فهو الموجد الحقيقى الوحيد وهو الهادم القوى الوحيد . هو الذى كون الجبال من حبيبات الرمال ورفع الخلية الحقيرة التى اشتملت على أصل الوجود النوعى الى مقام الانسان وكل ظاهرة وكل حادثة لا تتغير ولا تتحول الاّ بالزمان ولقد أصاب من قال ان النملة اذا امتد أمامها الزمن وسعها أن تجعل الجبل الرفيع مهاداً ولو ان موجودا تمكن من تصريف الزمان كما يشاء لكان صاحب القوة التى يعترف بها المؤمنون للواحد الديان

بحثنا هذا قاصر على تأثير الزمان فى اراء الجماعات ومعتقداتها وهو فيها له كذلك الأثر العظيم فهو القاهر فوق أكبر المؤثرات الاخرى من التى لا تكون بدونه كالشعب وغيره وهو الذى يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال

والزمان هو بالاخص محضر اراء الجماعات ومعتقداتها أو هو مهيئ التربية التى تنبت فيها ولذلك صح وجود بعض الافكار فى زمن وامتنع وجودها فى زمن آخر وهو الذى يركز المعتقدات بعضها فوق بعض وكذا الافكار فيهيئ

بذلك قيام الآراء والمذاهب فى العصور المتتابعة لانها لا تنبت صدفة ولا توجد اتفاقا بل ان لكل واحد منها جذورا تمتد فى زمن بعيد فاذا انبثقت فانما الزمان هو الذى هيأ تفتح أزهارها واذا اردت ان تعرف كنهها فارجع الى ماضيها . هى بنات الماضى وهى أمهات المستقبل وهى اماء الزمان على الدوام

نتج من هذا ان الزمان هو صاحب السيادة الحقيقة فينا وما علينا الآن ان نتركه يعمل لنرى كل شئ يتحول ويتبدل . نحن الآن فى فزع شديد من مقاصد الجماعات التى تهددنا ومما تنبئنا به من تقويض اركان الهيئة الحاضرة ومن الانقلاب المنتظر فيها . ولكن الزمان سيتكفل وحده باعادة التوازن بيننا . قال موسيو (لافيس) : ما من نظام يقوم فى يوم واحد بل لا بد فى تقرير النظامات السياسية والاجتماعية من مرور الاعصر والاجيال فقد بقى نظام حكم الشرفاء مضطربا غير واضح عدة قرون حتى تبين وتأصلت له قواعد يعرفها الناس كذلك قطعت الملوكية المطلقة قرونا قبل ان تهتدى الى الاصول المنظمة التى تدير بها حكومة البلاد وكم

من اضطراب وقع فى ادوار هذا الانتقال »

٤
النظامات السياسية والاجتماعية

لا يزال الناس يذهبون الى ان النظامات تقوم معوج الهيئة الاجتماعية وان تقدم الامم أثر من آثار اتقان تلك النظامات واصلاح الحكومات وانه يمكن احداث الانقلابات الاجتماعية بواسطة الاوامر والقوانين . كان هذا مذهب الثورة الفرنساوية فى بدايتها واليه يذهب الان ايضاً من اتخذوا مجرد الخوض فى الاجتماعات مذهبا

ذاك وهم تأصل فى الافكار لماتبدده التجارب على تكرارها وقد ضاعت فيه متاعب الفلاسفة والمؤرخين الذين تصدوا لبيان فساده لكنهم لم يلاقوا صعوبة فى اقامة الدليل على ان النظامات نبات الافكار والمشاعر والاخلاق وان الافكار والمشاعر والاخلاق لاتتغير بتغيير القوانين وان الامم لاتختار نظاماتها كما تشتهى كما انها لا تملك اختيار لون اعينها وشعر رؤوسها بل ان النظامات والحكومات ثمرة الشعب الذى

هى فيه فليست هى التى تخلق زمنها ولـكنها هى التى اوجدها زمانها . وليست الامم محكومة كما يشاء لها الهوى أنى تشاء بل كما تشاء اخلاقها وطباعها وكما ان كل نظام لم يستقر الا بعد قرون عـدة كذلك ينبغى لتغييره قرون عدة . وليس للنظامات قيمة نوعية فى ذاتها فلا هى حسـنة لذاتها ولا هى رديئة لذاتها وان ما صلح منها لامة فى زمان يجوز ان يكون مضراً فى امة اخرى

لهذا كان من المحقق ان الامة لا تملك كل الملك تغيير نظاماتها نعم فى امكانها ان تبدل اسماءها بواسطة الثورات العنيفة والاضطرابات القوية لـكن اللب يبقى كما كان أما الاسماء فهى عناوين لا يلتفت اليها المؤرخ الذى ينقب عن حقائق الاشياء الا ترى ان اعظم أمة ديمقراطية فى الارض هى الامة الانكليزية مع كونها تعيش تحت امرة حكومة ملـكية وان اكبر امة حفها الاسـتبداد هى الجمهوريات الاسبانية الامريكية رغم نظامها الجمهورى الذى يحكمهاذلك ما يعترف به للانكليز اعظم الجمهوريين تقدماً فى الولايات المتحدة وانى اذكر للقراء ما جاء في جريدة (فروم)الامريكية

ونقلته عنها مجلة المجلات الصادرة فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ قالت « لا ينبغى ان ينسى الناس حتى الذين هم من اكبر اعداء الشرفاء ان انكلتره هى اول امم الارض فى الديمقراطية اعنى الامة التى بلغ فيها احترام حقوق الفرد غايته والتى بلغ افرادها من الحرية اعلى مقام » وبالجملة فائد الامم اخلاقها وطباعها لا حكوماتها . تلك قضية حاولت بيانها فى كتابى السابق واثبتها باوضح دليل واقوى مثال

لذلك كان من العبث جداً اضاعة الزمن فى خلق نظام جديد من جديد بل لا فائدة من شد رحال علم المعانى والبيان لخلق مثل هـذا النظام فان ذلك من عمل الجهلاء . والحاجة والزمان هما الكفيلان باعداده اذا عقل الناس وتركوا هذين العاملين يعملان . هذا الذى اعتمد عليه الانكليز السكسونيون وهذا هو الذى يقوله لنا مؤرخهم العظيم (ماكولى) ضمن كلام يجب على ادعياء السياسة فى الامم اللاتينية ان يحفظوه على قلوبهم . بداء المؤرخ ببيان مااحدثته القوانين الانكليزية من الآثار الطيبة على ما يظهر بها من الرداءة والتناقض والبعد عن المعقول ثم قارن بين نظام انكلترا والبضعة عشر نظاما

التى اختنقت بين تقلصات الامم اللاتينية فى اوروبا وامريكا واوضح ان الأول لم ينله التغيير الاّ على مهل جزءاً بعد جزء بتأثير الضرورة لا بتأثير النظر العلمى أبداً ثم قال « القواعد التى سار عليها المائتان وخمسون برلماناً من عهد حنا الى عهد فيكتوريا فى مداولاتها وقراراتها هى انها ما اهتمت مطلقاً بحسن التنسيق بل كان كل همها فى الفائدة ولم ترفع شاذاً لشذوذه ولم تأت بجديد الاّ اذا تحققت ان حرجاً استولى على النفوس من اجله ولم تجدد الاّ بمقدار ماتتفادى من هذا الجرح ولم تقرر مبدأ أعم من الضرورة التى اقتضته »

ولو أردنا بيان كون القوانين فى كل أمة منتزعة من روحها وانه لا يمكن لذلك تغييرها عنوة وقسراً للزم ان نأتى على كل قانون ونخوض فى كل نظام . فمثلا يجوز الجدل فلسفياً فى هل حصر السلطة وارجاعها فى النهاية الى يد واحدة أفضل من تفريقها ام العكس أولى . لكن اذا رأينا امة مؤلفة من عناصر مختلفة قضت الف عام فوصلت بعد ذلك الى حصر السلطة وجمعها ورأينا من جهة اخرى ان ثورة عظيمة جاءت لتحطم كل نظام ولده الزمان قد احترمت هذا الحصر وبالغت

فيه كان لنا ان تقول ان هذا النظام هو ابن الضرورة التى لا مفر منها وانه شرط من شروط حياة تلك الامة وان نرثى لحال اولئك الذين قصرت احلامهم من السياسيين الذين يذهبون الى وجوب ابطال ذلك النظام ولو ان الصدفة ساعدتهم على نيل ما يبتغون لكانت نتيجة ذلك قيام حرب أهلية يستطير شررها والعودة عاجلا الى حصر السلطة بأشد مما هى عليه والذى يقارن بين المنافسات الدينية والسياسية الشديدة القائمة فى اجزاء البلاد الفرنساوية والناشئة على الاخص من اختلاف عناصر الامة وبين ميل البعض الى تجزئة السلطة وتوزيعها ايام الثورة وعقب الحرب الفرنساوية الالمانية يتبين له ان العناصر المختلفة التى لا تزال حية فى بلادنا لا تزال بعيدة عن الامتزاج والاتحاد وان أحسن عمل جاءت به الثورة هو حصر السلطة وجمعها وتقسيم البلاد تقسيما اعتبارياً لا طبيعياً الى اقسام متعددة توصلا الى مزج الاقاليم القديمة وخلط سكانها بعضهم ببعض فاذا امكن اليوم تحقيق ما يصبو اليه اولئك الذين لا يقرأون عواقب الاعمال من التجزئة والتوزيع أدى ذلك الى اضطرابات تهرق فيها الدماء وتقتل

النفوس ولا يغفل عن ذلك الا من نسى تاريخنا

نتج مما تقدم ان التأثير الحقيقى فى روح الجماعات لا يكون من طريق النظامات واذا لفتنا الذهن الى الولايات المتحدة رأيناها ترفل فى حلل الرخاء وتخطر فى جلباب السعادة بفضل نظاماتها الديمقراطية ثم اذا رجعنا الى الجمهوريات الاسبانية الامريكية — الفيناها وهى متمتعة بنظام مثله تتعثر فى اذيال التقهقر والفوضى وحكمنا بأنه لا دخل لتلك النظامات لا فى سعادة الاولى ولا فى شقاء الثانية وبأن الذى يحكم الامم انما هو اخلاقها وكل نظام لا يندمج مع هذه الاخلاق ويمتزج بها تمام الامتزاج يكون أشبه بالثوب المستعار وهو ستار لا يدوم . نعم قامت حروب دموية وهبت ثورات عنيفة وستقوم حروب وتهب ثورات والغرض منها كان ويكون الزام الامم بنظامات يعتقد الناس انها مجلبة السعادة كاعتقادهم فى آثار الاولياء والصالحين وقد يقال ان النظامات تؤثر فى نفوس الجماعات لانها تفضى الى مثل تلك الحروب والثورات — والصحيح ان لا تأثير لها البتة لانا قد عرفنا انها لا قيمة لها فى ذاتها سواء كانت الغلبة لها ام عليها وانما الذى يؤثر فى الجماعات

اوهام والفاظ وعلى الاخص الالفاظ تلك الالفاظ الخيالية القوية التي سنبين سلطانها

٥

التربية والتعليم

لكل عصر افكار تسود فيه وان كانت في الغالب من قبيل الخيالات وقد بينا في غير هذا المكان ما لتلك الافكار من القوة وما هي عليه من القلة

ومن الافكار السائدة في هذا العصر ان في التعليم قدرة على تغيير الرجال تغييراً محسوساً وان نتيجته التي لا يشكون فيها هي اصلاحهم بل ايجاد المساواة بينهم . ذكروا ذلك وكرروه فصار أحدالمذاهب الثابتة عند الديمقراطيين واصبح التعرض له من اصعب الامور كما كان من الصعب التعرض لسلطان الكنيسة في الزمن السابق

ولكن اراء الديمقراطيين في هذا الموضوع كما هي في كثير من الموضوعات الآخر مناقضة كل المناقضة لما اثبته علم النفس ولما دلت عليه التجارب فيما اثبته الكثيرون من

كبار الفلاسفة بلا عناء خصوصا (هربرت سبنسر) كون التعليم لا يزيد فى تهذيب الانسان ولا فى سعادته ولا يغير من غرائزه وشهواته التى تلقاها بالوراثة وانه اذا ساء طريقه كان ضرره اكبر من نفعه وأيد علماء الاحصاء هذه النظريات فقالوا ان الميل الى الجرائم يزداد بانتشار التعليم او هو يزداد بانتشاره على طريقة مخصوصة وان الد اعداء الهيئة الاجتماعية وهم الفوضويون ينسلون غالبا الى مذهبهم ممن حازوا السبق فى المدارس واشار موسيو (ادولف جيو) وهو احد اعاظم القضاة انه يوجد الآن فى كل اربعة الآف مجرم ثلاثة الاف متعلمون والف واحد أميون وان عدد الجرائم زاد مدى خمسين سنة من (٢٢٧) جريمة لكل مائة الف نسمة الى (٥٥٢) اعنى بنسبة (١٣٣) فى المائة ولاحظ ايضاً هو ورفقاؤه ان الجرائم تكثر بين الشبان الذين ابدلوا تعلم المهن على يد المعلمين بتعليمها فى المدارس ألاجبارية المجانية

نعم مما لا يشك فيه انسان ان التعليم اذا حسنت طرائقه ينتج نتائج عملية ذات فائدة كبيرة فاذا هو لم يرفع درجة التهذيب ويؤثر فى رقى الاخلاق فانه ينمى الكفاآت الفنية

ولـكن من سوء الحظ ان الامم اللاتينية اسست التعليم على قواعد غير صحيحة ولا سيما منذ خمس وعشرين سـنة ومع كون فطاحل العلماء مثل (بريال)و(فوستيل دى كولانج) و (تاين) وكثير غيرهم قد انتقـدوها لاتزال تلك الامم على خطئها فيها وقد شرحت انا ايضاً فى كتاب لى اصبح قديما ان طريقة التعليم الحالى عنـدنا تحول القسم الاكبر ممن يتلقونه الى اعداء للهيئة الاجتماعية وتزيد كثيراً فى اصحاب اشد المذاهب الاشتراكية ضرراً

واول خطر ينجم عن هذه التربية المسماة بحق تربية لاتينية آت من بنائها على قاعدة يحكم علم النفس بفسادها . ذلك انهم قالوا أن الحفظ عن ظهر القلب يربى الذكاء ويقوى الفطنة ثم انتقلوا من هذا الى وجوب الاكثار من الحفظ مااستطاعوا وصار المتعلم فى المدرسة الابتدائية والعالية حتى الذى يتلقى علوم الاسـتاذية لا يعمل الا للحفظ وهو فى ذلك كله لا يدرب مداركه ولا يمرن ملـكة الاقدام على العمل من نفسه لان التعليم فى نظره ينحصر فى القاء المحفوظ وفى الخضوع قال موسيو (جول سيمون) وهو أحد وزراء المعـارف الأقدمين « ان

حفظ الدروس عن ظهر قلب وكذا حفظ متن فى النحو او مختصر وحسن الالقاء وحسن التقليد تربية هى من الهزء بمكان اذ كل همة يبديها المتعلم فى هذه السبيل عبارة عن الاعتقاد بان المعلم مصون عن الخطأ وذلك لا ينتج الا نقصنا وضعفنا »

ولو ان ضرر هذه التربيـة كان قاصراً على عدم فائدتها لاكتفينا بالعطف على اولئك الاطفال المساكين الذين يحفظون فى المدرسـة نسب (كلوتير) ومصارعات (نوستيرى) وفصيلات الحيوان وغير ذلك بدلا من ان يتعلموا اشـياء كثيرة اخر نافعة لكن ضررها اكبر من ذلك فهى تولد فى نفس المتعلم سآمة شديدة من حالته التى هو عليها بمقتضى نشأته ورغبة شديدة فى الانسلاخ عنها فلا الصانع يبغى البقاء على صنعته ولا الفلاح يميل الى الدوام فى فلاحته وأقل الناس فى الطبقة الوسطى لا يختار لابنائه عملا الا فى وظائف الحكومة والمدرسـة لا تربى رجالا قادرين على الحياة وانما تخرج عمالا لوظائف ينجح فيها الانسان دون ان يهتم بقيادة نفسه ولا ان يتقدم الى عمل من ذاته . فهى توجد فى أسفل

سلم الهيئة الاجتماعية جيوشاً من الصعاليك المتمضين المتهيئين دائما للثورة . وفى اعلاه طبقتنا الوسطى الفارغة الحذرة المغفلة التى تعتقد اعتقاداً دينيا فى قدرة الحكومة وبعد امكانها وهى مع ذلك لاتنفك عن القدح فيها والتى تخطىء ثم تؤاخذ الحكومة بما أخطأت والتى لا تقدر على القيام بعمل لا يد للحكومة فيه

أما الحكومة التى تصنع حملة الشهادات من تلك المختصرات فلا يسعها ان تستصنع منهم الا القليل وتترك الباقين بالضرورة بلا عمل . فوقعت بذلك بين ضرورة تغذية أولئك والصبر على عداء هولأ احتشد ذلك الجمع العظيم من حملة الشهادات يحاصر جميع الوظائف من القمة الى القاعدة اى من الكاتب الصغير الى المعلم فالمدير وصرنا نرى التاجر لايجد الا مع المشقة نائباً يتولى أعماله فى المستعمرات . ونشاهد الالوف من الشهادات مكتظة امام باب كل وظيفة مهما صغرت . ويوجد الآن فى مديرية السين وحدها من المعلمين والمعلمات عشرون الفاً لا عمل لهم ترفعوا عن المعامل والمصانع وشخصوا الى الحكومة يطلبون القوت منها ولما كان عدد الذين يختار منهم قليلا فعدد

الغضاب كثير بالضرورة وهؤلاء مستعدون لكل نوع من انواع الثورة والهرج تحت قيادة أى رئيس كان وكيفما كان الغرض . ذلك لان اكتساب معارف لايجد صاحبها سبيلا الى استعمالها هو من انجع الوسائل فى تهيئة المرء الى الخروج على امته (١)

ومن الواضح ان الوقت قد فات لمقاومة هذا التيار وانما

---

(١) على ان هذه الظاهرة ليست خاصة بالامم اللاتينية بل تشاهد فى بلاد الصين لكونها محكومة أيضاً بنظام قوى من « المندران » والمندرانية تنال هناك كما هو الحال عندنا بطريق الامتحان وهو عندهم عبارة عن تلاوة الطالب كتباً ضخمة عن ظهر قلبه والصينيون الآن يرون فى جيش المتعلمين الذين لا عمل لهم طامة كبرى على الأمة كذلك الحال فى الهند فمن يوم ان فتح الانكليز فيها المدارس لمجرد تعليم الوطنيين لا لتربيتهم كما يفعلون في انكلترا ظهرت فيها طائفة مخصوصة من المتعلمين يقال لهم (بابوس) اذا لم يجدوا وظيفة انقلبوا اعداء ألداء أشداء ضد الحكومة الانكليزية وكانت نتيجة التعليم سرعة انحطاط اخلاق جميع البابوس الذين دخلوا الخدمة منهم والذين لم يدخلوها وقد افضت الكلام عن ذلك فى كتاب (تمدن الهند) ولاحظه أيضاً جميع المؤلفين الذين زاروا تلك البلاد الواسعة

التجارب وهى آخر مرب للأمم ستظهر لنا خطأنا فهى التى تبرهن على ضرورة الاقلاع عن استعمال تلك الكتب الرديئة وابطال هذه الامتحانات التعسة واتباع طريقة تعليم فنى عملى يرد النشء الى المصانع والمعامل والمشروعات الاستعمارية وغير ذلك من الاعمال التى يجتهد أولئك النشء فى الهرب منها

هذا التعليم الفنى الذى تطلبه الآن العقول النيرة هو الذى تلقاه آباؤنا وهو الذى حافظت عليه الامم التى تحكم الدنيا بقوة ارادتها وبما اوتيت من الاقدام الذاتى فى الاعمال والقدرة على التصرف بالمشروعات

كتب احد كبار المفكرين موسيو (تاين) صفحات فى هذا الموضوع ما اجلها وسأنقل للقراء طرفا منها فيما يلى فابان باوضح برهان ان تربيتنا فى الماضى كانت تماثل التربية عند الانكليز او الامريكان فى الوقت الحاضر او ما يقرب من ذلك ثم اتى بمقارنة جميلة بين الطريقة اللاتينية والطريقة الانكليزية واعرب بافصح لسان عن نتائج الاثنتين

ولو كان الاكتساب السطحى لتلك المعارف الكثيرة واجادة تلاوة تلك الكتب التى لا عد لها مما يرقى ملكات

العقل فينا لاجهدنا النفس لاحتمال مضار هـذه التربية التى تعودناها ولو لم تخرج الا عطلة ممتعضين فهل لها هذا الاثر ؟ لا والاسف يملأ قلبنا ان الادراك والتجارب والاقدام والخلق هى عدة الحياة ولانجاح الا بها وليس شىء من ذلك فى الكتب . الكتب معاجم يستفيد المرء من مراجعتها لكن مما لا فائدة فيه نقل الفصول المطولة منها الى الدماغ

اما كون التعليم الفنى يربى العقل بما لا ينال من التربية العلمية الجارية فذلك ماشرحه موسيو (تاين) شرحا وافياً اذ قال « لا تتولد الافكار الا فى مولدها الطبيعى الاعتيادى والذى ينبت بذورها هو المؤثرات الكثيرة المختلفة التى يتأثر بها الشاب كل يوم فى المصنع والمعدن والمحكمة ومكتب المحامى ودائرة الاشغال والمستشفى ومن مشاهدة الآلات والعدد والادوات ومن العمليات ومن اجتماع المبتاعين والفعلة ومن العمل نفسه ومما يصنع رديئا كان الصنع او حسناً غالى الثمن او رخيصاً . هذه هى الملتقطات الصغيرة التى تتناولها العين والاذن او الايدى او الشم ايضاً التقاطا غير مقصود حيث تجتمع وتختمر وتأخذلها حيزا تنتظم فيه من نفس الشباب فترشده عاجلا او آجلا

الى تركيب جديداو تبسيط مركب اوطريقة اقتصاد او تحسين اختراع والشاب الفرنساوى محروم من هذا الامتزاج النفسى فقد غابت عنه كل هذه العناصر السهلة التناول الضرورية فى الوقت الذى هو احوج للاستفادة منها لانه مقصور مدى سبع سنين او ثمان فى المدرسة بعيد عن التجارب الشخصية السهلة القريبة المنال التى تحصل فى الذهن صورة قوية صحيحة من الاشياء والناس وتكسب معرفة الطرق المختلفة لاستعمال ذلك كله فضاع على تسعة من العشرة وقتهم وتعبهم مدى سنوات عدة من عمرهم سنوات ما كان انفعها او اكبر اهميتها بل قد كانت تكون الحد الفاصل بين بؤس ماض ومستقبل سعيد اليك اولا نصف الذين يتقدمون الى الامتحان او الثلثين انهم لا ينجحون واخرج من بين الناجحين نصفهم او ثلثيهم وهم الذين ابلاهم الدرس فلا يعودون ينفعون. كلفوهم بما لا يطيقون اذ طلبوا منهم يوم يجلسون على مقعد او امام لوحة ان يكونوا مدى ساعتين اشبه بمعجم يلقى على السامعين جملة من العلوم التى يبحث فيها عن جميع ما علم الانسان والواقع انهم كانوا ذلك او ما يقرب منه مدة ساعتين ولكنهم

لا يبقون كذلك بعد مضى شهر من الزمان فلا يقدروا ان يجوزوا الامتحان مرة اخرى لان معارفهم كانت كثيرة كثيفة فتسربت من عقولهم ثم هم لا يكسبون منها جديدا لان الملكات القت سلاحها ونضب ماء الاثمار منها اذذاك يبرز الشاب وعليه مخايل الرجل التمام وهو فى الغالب الرجل الذى قد فرغ منه. هذا الرجل يجمع اليه نفسه ثم يتزوج ويوطن النفس على ان يدور فى دائرة معينة وان يستقر على الدوران فى الدائرة عينها وينزوى الى العمل الضيق الذى اقام فيه وصار يؤديه بانتظام . ولا شئ بعد ذلك. هذه هى الثمرة فى المتوسط ولاشك فى ان الوارد لا يساوى المنصرف اما فى انكلترا وفى امريكا كما كان فى فرنسا قبل سنة ١٧٨٩ فانهم يستعملون عكس ذلك وعندهم تساوى الثمرة ما صرف او تربو عليه »

وبعد ذلك شرح لنا هذا المؤرخ المجيد الفرق بين طريقتنا وطريقة الانكليز السكسونيين فابان ان ليس لهؤلاء من المدارس الخصوصية الكثيرة مالنا . وان التعليم عندهم لا يتلقى من الكتاب بل من الشئ نفسه فالمهندس مثلا يتكون

فى المصنع لا فى المدرسة وهو ما يسمح لكل واحد ان يصل فى حرفته الى الحد الذى تصل اليه قدرته العقلية فيكون عاملا او رئيس عمال اذا قعد به الذكاء عند هذا القدر . وهو مهندس اذا قاده استعداده الى هذا الدرج . تلك هى الطريقة الديموقراطية المثلى وفيها الفائدة الصحيحة للأمة لا التى تجعل مستقبل المرء كله معلقا على نتيجة امتحان يؤديه الطالب وهو فى التاسعة عشرة أو المتممة للعشرين مدة سويعات معدودة قال موسيو (تاين)

« يدخل التلميذ والعود اخضر فى المستشفى او المعدن او المصنع او مكتب المتشرع فيتعلم ويقضى زمن التمرين كما يفعل كاتب المحامى أو المبتدىء فى الحرفة عندنا ويكون قد تلقى اولا بعض دروس عامة مختصرة اوجدت فيه محيطاً تعشش فيه الملاحظات التى تعرض له من يوم دخوله ومع ذلك يجد كل يوم بجانبه دروساً فنية يختلف اليها فى اوقات الفراغ ويتمكن بما يستفيده منها من ترتيب تجاربه وتنسيقها كلما اكتسب شيئاً منها . هذا نظام تنمو فيه القدرة العملية وتتقدم من نفسها بحسب ما تسمح به ملكات التلميذ وتسير فى

طريق العمل المستقبل الذى اختار التمرن عليه منذ الآن
وبهذه الواسطة يتمكن الشاب بسرعة من ان ينتزع من نفسه كل ما ملكت ويصير منذ الخامسة والعشرين واحياناً قبل ذلك ان ساعدته كفاءته ومادته منفذا نافعاً بل مبدئا مقداماً مندفعاً من ذاته فهو عجلة فى الآلة وهو ايضاً المحرك لها

اما فى فرنسا حيث سارت الطريقة الأخرى وصارت تقرب من طريقة اهل الصين فى كل جيل فان مجموع القوى الضائعة عظيم »

ثم استنتج ذلك الحكيم الكبير مما تقدم النتيجة الآتية التى تدل على مخالفة تربيتنا اللاتينية لمقتضيات الحياة مخالفة تعظم كل يوم فقال « امتد زمن التحضير النظرى فى ادوار التعليم الثلاثة الطفولية والصبا والشباب وقد زادت المواد على حد الطاقة والتلميذ جالس على المقعد وعيناه فى الكتاب انتظاراً ليوم الامتحان يوم ينال الشهادة يوم تتقرر الرتبة يوم تعطى الاجازة او الامتياز لا انتظاراً لشىء آخر وقد اعدوا لذلك اردأ الوسائل فاخضعوا التلميذ لنظام تأباه الطبيعة وتنفر منه دواعى الاجتماع فأجلوا التمرين العملى وقصروا التلامذة

فى حجور المدارس وربوهم تربية جسمانية صناعية وشحنوا الذهن شحناً مادياً بالمواد واجهدوا الفكرة وكلفوهم فوق المستطاع غير ملتفتين الى المستقبل ولا مهتمين بسن الرجولة ولا بالوظائف التى لا بد للطالب من القيام بها اذا اكتمل ولا ناظرين الى الوجود الحقيقى الذى اضحى على وشك الهبوط اليه ولا بالجمع المتلاطم الذى يجب تطبيعه بطبائعه أو اخضاعه لاحكامه قبل الانطلاق فيه ولا بالمعترك الانسانى الذى يلزم المرء فيه ان يأخذ اهبته ويتقلد عدته ويتدرب ويتقوى ليتمكن من الكفاح ويبقى قائما على قدميه. مدارسنا لا تكسب الشاب هذا المتاع على ضرورته وكونه أهم ما يجب ان يقتنى. لا تكسبه ملكة حسن التميز ولا مكنة الأرادة ولا صلابة الاعصاب بل على الضد من ذلك بدلا من ان تجهزه وتهيئه فانها تضعفه وتبعد وجه الشبه بينه هو ومستقبله القريب المحتوم لذلك تراه غالباً يسقط فى اول خطوة يخطوها بين الناس ويكون فى بداية امره كلما مدّ يده للعمل تولاه الكمد وأخذه الخزى زماناً طويلا وقد يصير كالاعرج ويبقى كذلك دائما. تجربة قاسية ذات خطر

تضطرب فيها الاخلاق ويختل ميزان العقل ويخشى من البقاء هكذا على الدوام فقد انكشف الستار وولى الخيال وعظم اليأس واشتدّ الاسى [1]

---

(١) راجع تاين (النظام الحالى جزء ٢ صفحة ١٨٩٤) وهذه الصفحات هى آخر ما كتب تاين تقريبا وفيها خلاصة تجارب ذلك الحكيم العظيم ولكنى مع الاسف ارى اساتذة مدارسنا الذين لم يقيموا زمنا خارج فرنسا لايدركونها على ان التربية هى الوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها التأثير فى نفس الامة ومن سوء الحظ انه لا يكاد احد عندنا يدرك ان طريقة التعليم التى نجرى عليها هى من اشد عوامل الانحطاط العاجل وانها لا ترفع قيمة نشئنا بل تحط منه وتفسده

ومما يفيد القراء ان يجمعوا بين ما كتب (تاين) والمشاهدات المتعلقة بالتربية في امريكا التى ذكرها موسيو (بول بورجيه) فى كتاب (بحر اخر) فقد لاحظ هو ايضا ان تربيتنا لا تخرج الا اواسط محدودة كفاءتهم فلا اقدام على العمل من انفسهم ولا ارادة فيهم أو فوضويين قال « وهما نموذجان تعسان للرجل المتمدن اذا خاب بانحطاط اخلاقه وعجزه أو فقد الرشد فصار آلة هدم وتخريب » ثم جاء بمقارنة جديرة بالامعان بين مدارسنا الفرنساوية التى هى مصانع اتلاف والمدارس التى تربى الرجل للحياة تربية تفوق الوصف هناك يتبين الفرق بين الامم الديمقراطية الصحيحة والتى ليس لها من ذلك الا ماجاء على السنة خطبائها لا الذى رسخ فى عقولهم

كأنى بالقراء يظنون انا قد بعدنا عن موضوعنا روح الاجتماع لكن نحن مازلنا فيه لأنه يجب علينا لمعرفة الافكار والمعتقدات التى تتولد الآن فى الجماعات ان نعرف كيف هيئت الأرض التى تنبت فيها فالتعليم الذى يعطى الأمة هو المرآة التى يرى فيها مصيرها يوماً من الأيام والذى يبذل منه الآن لشبابنا يدل على مستقبل مظلم جداً . كذلك نفوس الجماعات انما تتحسن او تفسد من بعض الجهات بواسطة التربية والتعليم لهذا وجب ان نعرف كيف هيأت الطريقة المتبعة عندنا فى التعليم روح جماعاتنا وكيف انها بعد ان كانت لاهية بنفسها او لا تشتغل بغيرها تحولت الى جيش كثيف من المتعضين مستعد لتنفيذ ما يشير به المهوسون اهل التخيلات او المتفيهقون تجار الكلام فالآن نحن نعلم ان الاشتراكيين والفوضويين يربون فى المدارس وان فيها تحضر اوقات انحطاط الامم اللاتينية عما قريب

الفصل الثاني

العوامل القريبة في افـكار الجماعات

(١) الصور والالفاظ والجمل — فيما للالفاظ والجمل من القوة السحرية — فى ان قوة الالفاظ مرتبطة بالصور التى تحدثها فى الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيقى — فى ان تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم — كثرة الالفاظ — امثلة على كثرة اختلاف معانى بعض الالفاظ المستعملة — الفائدة السياسية من اطلاق اسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت اسماؤها الاولى تحدث تأثيراً سيئاً فى نفوس الجماعات ـ اختلاف معانى الالفاظ الواحدة باختلاف الامم — اختلاف معنى ديموقراطية فى اوروبا وفى امريكا

(٢) — فى الاوهام — فى اهمية الاوهام ـ فى ان الاوهام موجودة فى أساس كل مدينة ـ ضرورة الاوهام فى الاجتماع ـ فى ان الجماعات تفضل الوهم على الحقيقة

(٣) — التجارب ـ يجوز ان تولد التجارب وحدها فى نفوس الجماعات حقائق لازمة وتهدم اوهاما ضارة — انما تؤثر التجارب اذا كثرت — ماتقتضيه التجارب اللازمة لاقناع الجماعات

(٤) ـ العقل ـ عدم تأثيره فى الجماعات ـ فى انه لايمكن التأثير في الجماعات الا من طريق مشاعرها الغريزية ـ شأن المنطق في التاريخ ـ في الاسباب الخفية للحوادث الخارجة عن المعقول

فرغنا من البحث فى العوامل البعيدة التحضيرية التى تهيئ نفوس الجماعات لظهور بعض الاميال والافكار وبقى علينا ان نبحث فى العوامل التى تؤثر فيها مباشرة وسنرى فى الفصل الآتى كيف تستعمل هذه العوامل لتظهر آثارها كلها

وقد بحثنا فى القسم الاول من هذا الكتاب فى مشاعر الجماعات وافكارها ومداركها ومما عرفناه يسهل علينا غالباً استنباط الوسائل التى تؤثر فيها فنحن نعرف مما تقدم أى العوامل يفعل فى تصوراتها ونعرف قوة المؤثرات وعدواها خصوصاً ما جاءها منها فى شكل صور ترتسم فى الخيال ولما كانت مناشئ المؤثرات مختلفة كانت العوامل التى لها قوة

التأثير فى نفوس الجماعات تتنوع كثيراً تبعاً لها لهـذا ينبغى الـكلام فى كل واحد منها وليس البحث غير مفيد لان احوال الجماعات تشـبه بعض الشبه طلاسم الارصاد عند القـدماء فاما ان تتمـكن من حل طلاسمها واما ان نستسلم لها فتأكلنا .

١

الصور والالفاظ والجمل

تبين عند البحث فى تصور الجماعات أنها تتأثر على الاخص بالصور وليست الصور ممكنة فى كل وقت لـكن من السهل استحضارها فى الذهن بالحذق فى استعمال الالفاظ والجمـل ومتى كان المستعمل لها بارعا فلها قوة السحر عند معتقديه فى الزمن السابق فهى التى تثير فى نفوس الجماعات اشد صواعق الغضب وهى التى تسكنها اذا جاشت ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الالفاظ والجمل لامكن ان يقام منها هرم ارفع من هرم خيوبس القديم

السر فى تأثير الالفاظ للصور التى تحضر فى الذهن بواسطتها وليس لذلك التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقية بل الغالب ان اشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماماً مثال ذلك كلمات ديموقراطية . اشتراكية . مساواة حرية.وهكذا مما ابهم معناه ويحتاج فى تحديده الى مؤلفات ضخمة والكل يسلم ان لها سلطاناً ينساب فى النفوس كأنها اشتملت على حل المسائل الاجتماعية كلها وفيها تمثل الاميال اللاشعورية على اختلافها والامل فى تحقيقها

لبعض الالفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل الفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعاً امام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتعنو الوجوه لها احتراماً وكثير يعتقدون ان فيها قوة ألهية.الفاظ وجمل تثير فى النفوس صورا لا كيف لها ولا انحصار محفوفة بالاكبار والاعظام ابهامها يزيد فى قوتها الخفية فهى آلهة لا تدركها الابصار قد احتجبت خلف (المظلة) التى ترتعد لهيبتها فرائص العابد اذا تقدم نحوها

ولما كانت الصور التى تستحضرها الالفاظ مستقلة عن

معانيها كانت مختلفة باختلاف الأجيال والامم وان اتحدت صيغها ولبعض الالفاظ صور تتلوها على الأثر كأن الكلمة منبه اذا تحرك برزت صورته

ومن الالفاظ ما هو مجرد عن قوة استحضار صورة ما ومنها ما تكون له تلك القوة اولا ثم تبلى بالاستعمال فتفقدها تماما وتصير اصواتا فارغة تنحصر فائدتها فى اعفاء المتكلم بها من التفكر والامعان ومن السهل على الانسان اذا حفظ فى صغره قليلا من الالفاظ وشيئاً من الجمل المصطلح عليها ان يجتاز الحياة بها من دون احتياج الى اجهاد نفسه بالفكر فى امر من امور الدنيا

من تأمل فى لغة من اللغات وجد ان الالفاظ التى تتركب منها لا تتغير مع الزمان الا ببطء عظيم انما الذى يتغير على الدوام هو الصور التى تلازم تلك الالفاظ والمعانى التى تؤديها ومن هنا قلت فى بعض مؤلفاتى ان ترجمة لغة بتمامها ضرب من المستحيل خصوصا اذا كانت لغة أمة ميتة ونحن اذا ترجمنا الى الفرنساوية كلمة يونانية او لاتينية او سنسيكريتية اواردنا فهم كتاب بلغتنا منذ قرنين او ثلاثة فذلك عبارة عن احلال

الصور والمعانى المنتزعة من حياتنا الحاضرة محل صور ومعارف مغايرة لها بالمرة وكانت معروفة لامم لانسبة بين حياتها وحياتنا . نقل رجال الثورة الفرنساوية عن الرومان وعن اليونان الفاظا وظنوا انهم بذلك يقلدونهم فى نظاماتهم وهم انما اثبتوا لالفاظ قديمة معانى ما كانت لها ابدا فأى شبه بين نظامات الاغريق ونظاماتنا وان تقابلت الاسماء السنا نعلم ان كلمة جمهورية كانت تدل عندهم على نظام سداه الشرفاء ولحمته الشرفاء اجتمع فيه افراد من صغار المستبدين وتحكموا فى قطيع من العبيد المسخرين . تلك جمعيات اشراف قروية كان الرق قوامها ولولا الاسترقاق ما عاشت لحظة واحدة

وتلك كلمة الحرية أى شبه بين معناها الآن عندنا ومعناها قديماً عند قوم لم يمر بخاطر واحد منهم طائف الحرية فى الافكار أيام كان اكبر الجرائم النادرة الوقوع تطرق البحث الى الآلهة أو القوانين أو العادات فى مدينة من المدن فكان معنى وطن عند اهل اتينا او اهل اسبرطة تمجيد المدينة لا البلاد اليونانية لانها كانت مدائن متباغضة وفى حرب مستديم ولم يكن لهذا اللفظ معنى عند أهل الغلوا الاقدمين وهم قبائل

متنافرة وأجناس متغايرة وأهل لغات متنوعة وديانات شتى وقهرهم قيصر بدون عناء اذ كان له من بينهم حلفاء على الدوام وروما هى التى اوجدت وطن الغلوى بايجادها الوحدة السياسية والدينية فيها مالنا ولذلك الزمن البعيد فمن قرنين اثنين لم يكن للفظ الوطن فى نفوس الامراء الفرنساويين ما نفهم نحن منه الآن اذ كانوا يحاربون الاجنبي على ملكهم كما فعل البرنس

كونديه ولا فى نفوس المهاجرين الذين كانوا يعتقدون ان الشرف وحفظ العهد يقضيان عليهم بمحاربة فرنسا وكانوا يعملون بهذا الاعتقاد لأن نظام حكم الشرفاء كان يربط التابع بالمتبوع لا بالبلاد التى هو منها فحيثما كان المتبوع يوجد الوطن

وما اكثر الالفاظ التى تغير معناها تغيراً كلياً من جيل الى جيل ولم نعد ندرك معانيها الاولى الاَّ مع الجهد والمشقة ولقد أصاب القائل بوجوب الاطلاع على كتب كثيرة للوقوف على ما كان يفهمه آباء اجدادنا من بعض الالفاظ مثل ملك وعائلة ملكية فمابالك بغيرها مما له معنى دقيق

نتج من هذا ان معانى الالفاظ غير ثابتة وانها عرضية اى وقتية تتغير بتغير الاجيال وتختلف باختلاف الامم فاذا أردنا

ان تؤثر فى الجماعات لزمنا ان نعرف معنى الالفاظ عندها وقت مخاطبتها لا معناها القديم ولا الذى يفهمه منها من يختلف معها فى الفكر والمعقول

ومن اجل هذا متى تمت الانقلابات السياسية واستقرت معتقدات مكان اخرى وتمكن بذلك نفور الجماعات من الصور التى تحضرها من بعض الالفاظ وجب على رجال السياسة الجديرين بهذا الاسم ان يسارعوا الى تغيير تلك الالفاظ من دون ان يتعرضوا لتغيير المسميات لان هذه مرتبطة بمزاج القوم الموروث ارتباطاً ليس من السهل تغييره

وقد لاحظ توكفيل منذ بعيد وكان نقاداً ان حيل اعمال القنصلية والامبراطورية (فى فرنسا) كان الباس القسم الاكبر من النظامات القديمة لباساً جديداً من الالفاظ اعنى الاعتياض من ألفاظ اصبحت تؤدى فى الاذهان صوراً مكروهة بألفاظ لا تثير فيها هذا التأثر لحدتها فسموا العوائد الشخصية ضرائب عقارية والعونة ضرائب غير مقررة وهكذا

فمن اهم وظائف سواس الامم تسمية المسميات التى صارت الجماعات لا تطيق سماع اسمائها المعروفة باسماء مقبولة

او على الاقل لا مقبولة ولا مكروهة لان قوة الالفاظ شديدة حتى انه يكفى تسمية أشد الاشياء كراهة للجماعات باسماء مختارة لترضى بها ومن هنا لاحظ (تاين) ان اليعقوبيين تمكنوا باسم الحرية والمساواة وهما كلمتان محبوبتان فى زمانهما عند الناس (من اقامة استبداد احق به بلاد الداهومية وتأليف محكمة شبيهة بمحكمة الاضطهاد واحداث مذابح فى الناس شبيهة بمذابح بلاد المكسيك)

فالحكام كالمحامين يرجع فنهم الى اختيار الالفاظ وحسن استعمالها وصعوبة هذا الفن ناشئة من كون معنى اللفظ الواحد يختلف غالباً باختلاف طبقات الامة الواحدة اختلافا كبيراً فهى وان استعملت الالفاظ بذاتها لا تتكلم مع ذلك بلغة واحدة

رأينا فى الامثلة التى اتينا عليها ان الزمان هو أهم العوامل فى تغيير معانى الالفاظ وكذلك تختلف المعانى فى الزمن الواحد اختلافا كلياً عند الامم التى اختلفت فى الجنس وان تماثلت فى المدنية ومن المتعذر ادراك ذلك لمن لم يسبق له تطواف طويل فى الامم فلا اطيل الكلام فيه ولكنى اشير الى ان

اختلاف المعانى واتحاد الالفاظ عند الامم المختلفة يكون بالاخص فيما يكثر استعماله منها على لسان الجماعات مثل لفظى ديموقراطية واشتراكية اللذين شاع استعمالهما الآن

الافكار والصور التى تتحصل من هذين اللفظين تختلف اختلافاً بيناً عند الجنسين اللاتيني والانكليزى السكسونى فمعنى الديموقراطية عند الاول انزواء ارادة الفرد واقدامه على العمل من نفسه امام ارادة المجموع وهمته والمجموع تشخصه الحكومة[1] فالحكومة هى المكلفة بأدارة كل شئ وحصر كل شئ واحتكار كل شئ وصنع كل شئ وهى التى تلجأ اليها دائماً الاحزاب بلا استثناء من احرار الى اشتراكيين الى ملكيين وعلى الضد من ذلك يفهم الانكليزى السكسونى وبالاخص الامريكى من كلمة ديموقراطية نمو ارادة الفرد واقدامه الذاتى الى الحد الاقصى وانزواء الحكومة بقدر ما امكن فلا تكلف بعد الشرطة والجيش والعلاقات السياسية بشئ حتى التعليم وعليه فاللفظ الواحد يفيد فى بلد جمود

---

(١) الحكومة هنا عبارة عن مجموع السلطات التى بيدها زمام الامر فى البلاد

ارادة الفرد وسكون اقدامه الذاتى واستعلاء كلمة الحكومة ويفيد فى بلد أخر انزواء هذه وارتفاع صوت الاول [١]

٢

الاوهام

خضعت الجماعات منذ بزغ فجر المدنية لتأثير الاوهام فاقامت لموجديها اكثر التماثيل والهيا كل والمعابد وما من مدنية ومامن حضارة تبلج صبحها فوق ظهر الارض الا وكانت تلك الملوك الهائلة فى طليعة جيوشها اريد المعتقدات الدينية قديماً والسياسية والاجتماعية فى هذه الايام . هى التى شيدت هيا كل الكلدان ومصر واقامت المساجد والبيع فى القرون الوسطى وهى التى قلبت القارة الاوروبية من الرأس

(١) شرحت القول باسهاب في كتابى (ناموس تطور الامم النفسى) على الفرق بين الديموقراطية عند الامم اللاتينية والامم السكسونية وجاءت نتيجة بحث موسيو (بول بورجيه) في كتابه (بحر اخر) مطابقة على التقريب لما ذكرت وان كان بحثه مستقلا بذاته

الى القدم منذ مائة عام وخاتمها مطبوع فى جبين كل ما ابرزه العقل من المستحدثات الفنية او السياسية او الاجتماعية . يهدمها الانسان احيانا ولكنه يعانى فى ذلك هول الانقلاب العنيس ثم هو محكوم عليه دائماً ان يقيمها من جديد فلولا هى ماخرج من بربرته الاولى ولولاهى لراح مسرعا يتخبط فى اودية الخشونة والتوحش نعم هى خيالات باطلة وهى من نبات الاحلام ولكنها هى التى ساقت الامم الى ايجاد مافى الفنون من رفيع وجميل ومافى الحضارة من عظيم وجليل

قال (دانيال لوزيار) لو أبيد مافى دور العاديات وما فى المكتبات العمومية وكسرت فوق بلاط مماشيها جميع التحف والاثار الفخمة التى ابدعتها الفنون والاديان ما بقى فى العالم شيء مما ولدته الاحلام وما كانت الالهة والابطال ولا الشعراء الا لتحدث فى النفوس شيئاً من الرجاء وبعضاً من الخيال اذ لاحياة للناس بغير الامل والرجاء . حمل العلم هذه الامانة الثقيلة خمسين عاما ثم تغلبت عليه قوة الخيال لانه اصبح غير قادر على الوعد بادائها كلها عاجزاً عن الكذب الى النهاية

اشتد ولع فلاسفة القرن الماضى بهدم الاوهام الدينية

والسياسية والاجتماعية التى عاش بها آباؤنا قروناً واجيالا فلما ظهروا عليها كانوا قد سدوا ايضا منابع الرجاء واغلقوا باب احتمال القضاء وبرزت من خلف الخيال الذى خنقوه قوى الطبيعة العمياء الصماء التى لا تشفق على الضعفاء ولا تحنو على التعساء

سارت الفلسفة الى الامام شوطاً بعيداً ولكنها مع تقدمها لم تهيء للجماعات خيالا يلذ لها والجماعات لاغنى لها عن الاوهام لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت الى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة تدب حيث يكون الضياء. ان الحقيقة لم تكن ابداً العامل الاكبر فى تطور الامم ولكنه الباطل على الدوام واذا بحثت عن السبب فى قوة مذهب الاشتراكية فى عصرنا هذا وجدته ما اشتمل عليه من الخيال الذى لا يزال حياً فى العقول فهو يعظم ويتجسم مع تزاحم انوار العلم التى تبرهن على فساده ذلك لان قوته آتية من جهل دعاته بحقائق الاشياء جهلا كافياً يجرئهم على وعد الناس بالسعادة فى الحياة والآن اصبح هذا الوهم سائداً فوق اطلال الزمن الماضى وله الملك آجلا فما كانت الجماعات فى ظمأ الى الحقيقة طول حياتها واذا تبدت

امامها وكانت تغضبها اعرضت ونأت وراحت تعبد الاوهام التي ترضى الامرة عليها لمن اضلها والويل منها لمن هداها

٣

التجارب

التجارب هي على التقريب الوسيلة الفعالة لتقرير الحقيقة في نفوس الجماعات وازالة الاوهام التي عظم ضررها انما ينبغي ان تكون عامة ماامكن وان تتكرر اذ تجارب جيل لاتؤثر غالبا في الذي يليه ولذلك لا تصلح الحوادث التاريخية للدليل بل تصلح لبيان انه يجب تكرار التجارب من جيل الى جيل ليكون بعض الاثر وليتوصل بها الى زعزعة الوهم المتأصل في نفوس الجماعة

ومن المحقق ان مؤرخي العصور الآتية سيكثرون من ذكر حوادث هذا القرن والذي تقدمه لاحتوائها على تجارب لا مثيل لها لان الناس لم يباشروا نظائرها في زمن من الازمان

واكبر هذه التجارب ثورتنا الفرنساوية لانها تدل على اننا احتجنا الى قتل عشرة ملايين من الرجال واضرام نار

الفتن والقلاقل فى اوروبا كلها مدى عشرين عاما لنعرف ان الامة لا تخلق خلقا جديدا بارشاد العقل وحده وقمنا بتجربتين منهكتين فى خمسين عاماً لنثبت من طريق التجربة ان القياصرة تكلف الأمم التى تمجدها كلفة باهظة ومع انهما كانتا مشرقتين بالحجة على ما ارادوا يظهر انهما لم تعتبرا كافيتين للاقناع والاولى اقتضت بضعة ملايين من النفوس وغارة اجنبية على البلاد والثانية أدت الى سلخ اقليم عنها وضرورة ايجاد جيش مستديم مع ذلك وكانت الثالثة على الابواب من عهد قريب وهى واقعة لا محالة يوما من الايام وبالجملة كان لا بد من تلك الحرب الهائلة التى استنزفت ثروتنا لكى تقلع الامة كلها عن الوهم بان جيش الالمان العرمرم لم يكن الا عبارة عن حرس ملى (١) لا خوف منه كما كانوا

---

(١) كان رأى العامة فى هذا الموضوع مبنياً على اجتماع النقيضين فى ذهنها لما فصلناه من قبل فكان حرسنا الملى فى ذلك الزمن مؤلفاً من صغار الباعة أهل الدعة الذين لا يعرفون للنظام معنى ولا يمكن لذلك الاعتداد بهم فكان كل مسمى باسم كهذا يرتسم فى الذهن على الصورة التى عرفها من قبل ولا يتوجس الناس منه خيفة وكان خطاء

يوحون به عندنا منذ ثلاثين عاماً

ولو أردنا ان نبرهن للأمم التى تعمل بمذهب حماية التجارة الوطنية لتقييد التجارة الاجنبية للزمنا القيام بتجارب ضارة بثروتنا مدة عشرين عاماً ومن السهل الاكثار من الامثلة على ماتقدم .

٤

العقل .

لولا الحاجة الى بيان ان لا تأثير للعقل فى الجماعات ما

الجماعات متعديا الى قوادها كما يقع ذلك غالباً بالنسبة للافكار العامة فقد رأينا موسيو (تيرس) يقول ما يأتى ضمن خطابه الذى القاه على مجلس النواب في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٦٧ و نقله موسيو أوليفيه في كتاب نشره حديثاً وكان ذلك القطب السياسى يتبع دائما افكار الجماعة الا انه لم يسبقهم فى فكر أبداً قال ناقلا « ليس لبروسيا غير جيشها العامل المساوى لجيشنا على التقريب الاحرس ملى يشبه الحرس الذى كان لنا وعليه لا أهمية له » وهى رواية تبلغ صحتها ما بلغه رأى ذلك السياسى في ضعف مستقبل السكك الحديدية .

احتجنا الى ذكره بين العوامل التى تؤثر فيها لانا قدمنا ان البراهين والادلة لا تأخذ من نفوس الجماعات وانها لا تعقل الا بالمشابهات الرديئة ولهذا فان الخطباء الذين عرفوا كيف تتأثر انما يخاطبون شعورها دون العقل لانه لا سلطان لقواعد المنطق عليها (١) فلأجل اقناع الجماعة ينبغى الوقوف اولا على

(١) ترجع ملاحظاتى فى فن التأثير فى الجموع وضعف قواعد المنطق فى هذا الموضوع الى زمن حصار (باريس) رأيت ذات يوم اناساً يسوقون أحد قواد الجيش العظام الى سراى اللوفر حيث مقر الحكومة والناس أكداس من حوله يزمجرون ويتميزون غيظاً وهم يتهمونه بانه كان ياخذ رسم احد المعاقل ليبيعه للبروسيانيين فلما وصلوا به خرج أحد أعضاء الحكومة وكان خطيبا ذائع الصيت ليخطب فى الناس وهم ينادون الموت الموت عاجلا وكنت انتظر منه ان يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله ان الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين اقاموا الحصون وان رسومها تباع فى المدينة عند جميع باعة الكتب غير انى بهت ـ كنت شابا فى ذلك الحين ـ اذ سمعته على نقيض ما ظننت يقول وهو يتقدم نحو الجموع « سيأخذ منه العدل اخذا لا رحمة فيه فاتركوا حكومة الدفاع عن الامة (١) تتم التحقيق الذى بدأ تموه

(١) هو اسم الحكومة فى ذلك الحين

المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقتها فيها ثم يحاول الخطيب تعديلها باستعمال مقارنات بسيطة عادية تشخص امامها صورا مؤثرة وينبغي ان يكون مقتدرا على الرجوع القهقرى متى وجد المقتضي وان يتفرس في كل لحظة اثر كلامه في نفس سامعه حتى يغير منه كلما مست الحاجة وهذه الضرورة التي تلجيء الخطيب الى سرعة تغيير الكلام بحسب الاثر الحاصل في نفس السامع هي التي تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل لان الخطيب يتبع في هذه الحالة سلسلة افكاره لا حركة فكر سامعيه فلا يكون لكلامه اقل تأثير عندهم

أما المناطقة فلانهم تعودوا الاقتناع بالادلة المتسلسلة الدامغة لا يمكنهم الخروج عن عادتهم هذه في مخاطبة الجماعات لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم قال بعض هؤلاء المنطقيين « ان للقياس المنطقي اعني الجمع بين الشيء ونظيره

وسنزجه في السجن حتى حين » قال هذا فرأيت الثورة قد سكنت وتفرق الجمع ولم يمض ربع ساعة الا والفريق في داره ولوانه خاطبهم بما جال بخاطري من الادلة المنطقية التي اعتقدتها دامغة لمزقوه اربا

فى الاستدلال نتيجة لازمة لا تتخلف عنه وهذا اللزوم يقتضى التسليم حتى من المادة لو ان فيها قدرة على ان تمثل النظائر »
وهو مسلم غير انه لا فرق بين الجماعة والمادة فى عدم ادراك النظائر بل فى عدم القدرة على سماعها ومن لم يصدق فليجرب اقناع الهمجى أو المتوحش أو الصبى بالحجة العقلية والدليل المنطقى وهو يقتنع بضعف تأثير هذه الطريقة فى اقناعهم

على انه لا داعى للتجربة فى الهمجى لمعرفة عدم تأثير الادلة العقلية متى عارضت الشعور ويكفينا أن نذكر كم من القرون امسكت الاوهام الدينية بالعقول على ما بها من مخالفة قواعد المنطق الابتدائية وان اكبر الناس عقلا وأسماهم فكرا انوا تحت حكمها الفى عام وبقى الحال هكذا حتى جاء هذا الزمان وأمكن البحث فى صحتها ولقد كان أصحاب العقول النيرة كثيرين فى القرون الوسطى وزمن النهضة الفكرية ومع ذلك ليس منهم من هدته الحجة وارشده الدليل الى ما كان فى الاوهام التى استولت على قلبه من الهزء والشطط أو شك يوما فى صحة اساءة الشيطان او فى ضرورة احراق الساحرين

رب سائل أثما يوجب الاسف ان العقل ليس هو الذى

يهدى الجموع على الدوام . نحن لا يسعنا ان نقول به بل نرى انه لو كان الهدى للعقل لما اندفعت الانسانية فى سبل المدنية والحضارة بالهمة التى اوجدتها الخيالات والاوهام . فليس لنا غنى عن الاوهام لانها نبات الغرائز

كل شعب يحمل فى كيانه العقلى نواميس مآله فى الوجود والظاهر انه يسير محكوما بتلك النواميس وانه ينقاد لحكمها بفطرة لا مقدور له فيها حتى فى نزعاته التى يرى انها خارجة عن كل معقول كذلك يظهر احيانا ان الامم مدفوعة بقوى خفية مثل التى تجعل بذرة البلوط شجرة كأمها او التى تدور بها (ذوات الاذناب) فى دائرتها

على انه لا يسعنا ان نعرف الا قليلا من تلك القوى وذلك بالبحث عنها فى حركة تطور الامة العمومية لا فى الحوادث الفردية التى يخال انها سبب ذلك التطور اذ لو قصرنا النظر على هذه الحوادث لظهر ان التاريخ يتكون من مصادفات غير معقولة بالمرة . فلقد كان مما لا يصدقه العقل ان نجاراً جاهلا هو (غاليليه) [١] يصير مدة الفى عام كالاله جلت قدرته يؤسس

---

(١) كذا فى الاصل لانه ولد سنة ١٥٦٤ وتوفى سنة ١٦٤٢

باسمه اهم اركان المدنيات فى الدنيا . وكان مما لا يصدقه العقل ان عصابات من العرب تندلع من صحاريها وتبسط فتوحاتها على القسم الاكبر من الدنيا القديمة التى عرفها اليونان والرومان وتختط مملكة فاقت ضخامتها مملكة الاسكندر . كذلك كان مما لا يتصوره العقل أن يقوم ضابط صغير فى أوروبا التى لها قدم راسخة في التاريخ وأهلها طبقات منظمة بعضها فوق بعض ويتمكن من السيادة على جميع أولئك الملوك وتلك الامم

اذن لندع العقل للحكماء ولا نطلبن منه ان يتداخل كثيرا فى حكم الامم فما بالعقل بل على الرغم منه فى غالب الاحيان تولدت مشاعر مثل الشرف وانكار اللذات والايمان بالدين وحب المجد والوطن وهى الصفات التى كانت ولا تزال اقوى دعائم المدنيات كلها

الفصل الثالث

قواد الجماعات وطرقهم فى الاقناع

—

(١) قواد الجماعات ـ حاجة الجماعات الفطرية الى قائد تطيعه ـ روح القواد ـ القواد هم الذين يمكنهم وحدهم ايجاد الاعتقاد ووضع نظام للجماعات ـ استبداد القواد نتيجة لازمة ـ أنواع القواد ـ شأن الارادة

(٢) وسائل التأثير التى يستعملها القواد ـ التوكيد و التكرار والعدوى ـ تأثير كل واحد من هذه العوامل ـ كيف ترتقى العدوى فى الامة من الطبقة السفلى الى الطبقة العليا ـ فى ان الفكر يكون للعامة فلا يلبث أن يصير عاما

(٣) النفوذ ـ تعريف النفوذ وأنواعه ـ النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى ـ أمثلة متنوعة ـ كيف يزول النفوذ

نحن الآن نعرف تركيب الجماعات الفكرى والعوامل التى تؤثر فى نفوسها بقى علينا ان نذكر كيفية استعمال هـذه العوامل ومن الذى يمكنه استعمالها استعمالا مفيدا

١

قواد الجماعات

ما اجتمع عدد من الاحياء سواء كان من الحيوان او من بنى الانسان الاّ جعل له بمقتضى الفطرة رئيساً

والرئيس فى الجماعات البشرية عبارة عن قائد فى الغالب الاّ ان له بذلك شأناً كبيراً تجتمع الافكار وتتحد حول ارادته وهو الركن الاول الذى يقوم به نظام وحدة الجماعات ويهيئها لان تصير طائفة خاصة

والعادة ان القائد يكون قبل ذلك مقوداً . اعنى انه كان مسحوراً بالفكرة التى صار هو الداعى اليها حتى استولت عليه استيلاء لا يرى معه الاّ ما كان منها وان كل ما خالفها وهم وباطل كما جرى للزعيم (روبسبير) اسكرته افكار (روسو) فقام يدعو اليها . واستعمل الاضطهاد وسيلة لنشرها .

ليس القواد غالبا من اهل الرأى والحصافة بل هم من اهل العمل والاقدام وهم قليلو التبصر. على انه ليس فى قدرتهم ان يكونوا بصراء. لان التأمل يؤدى غالبا الى الشك ثم الى السكون. وهم يخرجون عادة من بين ذوى الاعصاب المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية الى النصف وامسوا على شفا جرف الجنون. لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا. ولا تثنيهم حجة عن طلب ما قصدوا بالغاً منه الخطل ما بلغ. ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد بل ذلك يزيدهم تهوساً وعنادا. حتى انهم يفقدون غريزة المحافظة على النفس فلا يبتغون فى الغالب اجرا على عملهم الاّ ان يكونوا من ضحاياه. تزيد شدة اعتقادهم فى قوة تأثير اقوالهم. والجموع تصغى دائما الى قول ذى الارادة القوية الذى يعرف كيف يتسلط عليها ومتى صار الناس جماعة فقدوا ارادتهم والتفوا كلهم حول من كان له شيء منها

وجد القواد فى الامم على الدوام. غير انهم ليسوا جميعاً من اهل الاعتقاد الصادق الذى يصير به المرء رسولاً فى قومه.

بل هم فى الغالب قوالون سوفسطائيون لا يسعون الا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوى المشاعر السافلة ليكتسبوا ارضاهم وقد يكون النفوذ الذى ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جدا الاّ انه سريع الزوال . اما اصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات وحركوها مثل (بطرس الراهب) و (لوثر) و (سافونارول) ورجال الثورة الفرنساوية وغيرهم فانهم لم يتمكنوا من خلب العقول واجتذاب الارواح الا بعد ان سكروا بخمر المذهب الذى اعتقدوه . وبذلك توصلوا الى توليد تلك القوة الهائلة فى النفوس وهى التصديق الذى يجعل المرء عبداً لخياله .

كان عمل قواد الجموع على الدوام خلق الاعتقاد فى النفوس لافرق بين ان يكون دينياً او سياسياً او اجتماعيا . ولا ان يكون محله عملا او انسانا او رأياً بهذا كان تأثيرهم عظيما جدا. لان الايمان اكبر قوة فى تصرف الانسان . وقد صدق الانجيل فى قوله انه يزحزح الجبال عن مواضعها . فمن كان مؤمنا زادت قوته عشر امثالها . والذى قام باكبر حوادث التاريخ افراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم من الحول الاّ

الايمان . وليس المستبدون ولا الفلاسفة ولا اهل البأس على الاخص هم الذين اقاموا الاديان الكبر التى سادت على الدنيا . واختطوا الممالك الشاسعة التى امتدت فوق السطحين

غير ان الامثلة التى ذكرناها تختص بقواد عظام يندر ظهورهم فمن السهل على التاريخ حصرهم . وهم رأس سلسلة تتدلى من أولئك القواد العظام الى العامل الذى يقف فى قهوة اطبق الدخان فى سمائها ويسترعى اسماع اخوته وهو يلوك صيغاً حفظها من دون ان يدرك معانيها . ولكنه يؤكد ان فى العمل بها تحقيق جميع الامانى والآمال

لايلبث الانسان ان يقع تحت حكم قائد يتبعه كلما خرج عن العزلة الى الجماعة ذلك امر واقع فى جميع الطبقات ارقاها وادناها . فاما افراد طبقة العامة فان الواحد منهم متى خرج عن حرفته او مهنته لا تجد عنده فكراً واضحا فى أمر من الامور . وكلهم غير كفء لقيادة ذاته . ومرشدهم هو القائد وربما امكن الاستعاضة عنه بتلك الصحف الدورية التى تصنع لقرائها افكاراً وتحصل لهم جملا مصوغة تغنيهم عن التفكير الا ان البدل لا يقوم مقام الاصل تماماً

من لوازم سلطة القواد ان تكون مستبدة على ان استبدادهم هو علة سيادتهم وقد لوحظ كثيراً ان فيهم مقدرة على اطاعة طبقات العمال الذين هم أشد عربدة واصعب مراساً مع تجرد اولئك القواد من كل شيء يستندون عليه فى سلطتهم . فهم يحددون ساعات العمل ويقررون الاعتصابات وينفذونها بميقات ويفضونها بميقات

قواد هذه الايام صائرون الى الحلول مكان السلطات الحاكمة كلما تركت هى الناس يبحثون فيها ويضعفون من نفوذها . وتعسف المولى الجديد وظلمه يجعل الجماعة تطيعه بسهولة اكثر مما اطاعت حكوماتها . واذا حدث حادث اختفى بسببه القائد ولم يول الخلف على الاثر تصبح الجماعة جمهوراً مفككاً الاجزاء ولا قدرة فيها . فلما اعتصب عمال شركة الامنيبوس اعتصابهم الاخير فى باريس وقبض على الرئيسين اللذين كانا القائدين بطل الاعتصاب لساعته . انما الحاجة التى يشتد شعور الجماعة بها هى الخضوع لا الحرية وقد بلغ منها الظمأ الى الطاعة انها تخضع بفطرتها لكل من ادعى السيادة عليها

تنقسم القواد الى فريقين ممتازين فقواد أولو عزم وارادة قوية لكنها وقتية . وقواد ذوو ارادة جمعت بين القوة والدوام وهؤلاء قليلون والفريق الاول اصحاب حدة ونزق وشجاعة واقدام . وهم على الاخص نافعون فى تنفيذ ما دبر او كسب الجموع بلا خوف من الخطر وفى جعل الجبان بطلا مغواراً ذلك مثل (ناى) و (مورات) زمن الامبراطورية الاولى ومثل (غاريبالدى) فى عصرنا هذا فانه كان رجلا هجوما لا ذكاء فيه لكن ذا عزم ومضاء . وبذلك تمكن مع نفر قليل من الاستيلاء على مملكة (نابولى) القديمة على رغم الجيش المنظم الذى كان يحميها

عزيمة أولئك القواد على قوتها قلما تبقى بعد زوال السبب الذى دعا اليها . وكثيراً ما يبرهن الذين تجملوا بها على ضعف مدهش متى عادوا الى حياتهم الاعتيادية كالذين ذكرناهم فتراهم لا يستطيعون التصرف فى أصغر الحوادث مع كونهم كانوا ماهرين فى تصريف غيرهم . أولئك قواد لا يمكنهم القيام بوظائفهم الا اذا كانوا نفسهم مقودين وكان لهم مهيج على الدوام واستولت عليهم يد أو فكر من الافكار

وساروا فى طريق مرسوم من قبل

اما الفريق الثانى من القواد وهم ذوو الأرادة الثابتة فان تأثيرهم اعظم بكثير وان كانوا اقل ظهوراً فى الشكل وهم الذين نبغ من بينهم اصحاب الاعمال الكبيرة كالقديس (بولص) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) و(كريستوف كولومب) و(دولسبس). وسواء كان قوادهذا الفريق من الاذكياء او الاغبياء لهم الدنيا أبد الآبدين لان الارادة الثابتة التى اتصفوا بها ملكة نادرة الوجود لكنها قوية يخضع لها كل شيء الا ان الناس لا يدركون دائما ما عسى ان يكون من وراء الارادة القوية المستمرة فالذى يكون من ورائها هو أنه لا شيء يقف أمامها حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال

وأقرب الامثال على ما تأتى به الادارة القوية الثابتـه هو ذلك الرجل العظيم الذى فصل الدينين. وأنجز عملا قصرت عنه همة أكبر الملوك منذ ثلاثة آلاف عام. نعم لم ينجح بعد ذلك فى عمل يضارع هذا العمل. لكن الشيخوخة كانت قدأدركته وكل شيء ينطفيء أمامها حتى الارادة

من أراد بيان ماتأتى به الارادة وحدهافما عليه الا أن يذكر

العقبات التي ذللت لفتح قناة السويس . وقد لخص الدكتور (كزاليس) وهو من شهود الحال في أسطر تسحر الالباب تاريخ ذلك العمل المجيد نقلا عن صاحبه الذي خلد التاريخ ذكره فقال « كان – يعني دلسبس – يقص علينا حيناً فحيناً حوادث القناة مرحلة بعد أخرى . فحكى لنا مالاقى من الصعاب التي ذللها . وكيف جعل المستحيل ممكناً وروى المقاومات التي صادفته . والتحزبات التي اعترضته والياس الذي كان قد استولى على قلبه والخيبة التي كان يؤوب بها وكيف ان ذلك كله لم يكن ليثني عزيمته . ولا ليضعف من ارادته . وكان يذكر انكلترا وهي تحاربه وتحمل عليه الحملة بعد الحملة . وفرنسا ومصر مترددتان والعميد الفرنساوي أشد الجميع معارضة في البدء بالعمل . حتى أنه لما رأى عدم الامتثال أنحى على العمال بالعطش فسعى فمنع عنهم الماء القرات . ولا تنسى ان ناظر البحرية وفريق المهندسين والناس من رجل الجد وذي الخبرة وصاحب العلم كلهم خصماء . وكلهم مقتنعون علما بان الخيبة محتمة يحسبون سيرها ويحددون يوم حلولها كما ينبأ بالكسوف او الخسوف »

ان الكتاب الذى يضم سيرة أولئك القواد العظام لا يكون فيه عدد كثير من الاسماء لكن تلك الاسماء هى التى كانت على هامة أكبر حوادث الحضارة والتاريخ .

٢

وسائل القواد فى التأثير
التوكيد والتكرار والعدوى

اذا مست الحاجة الى قيادة جماعة وحملها على عمل من الاعمال كاحراق قصر أو الاستماتة فى الدفاع عن حصن أو معقل وجب التأثير فيها بخواطر سريعة . والامثولة أشد ذلك تأثيراً فى نفوسها الاّ انه يجب أن تكون هناك أحوال جعلتها مستعدة للتأثر وأن يكون من يريد تحريكها حائزاً للنفوذ وسيأتى الكلام فيه

لكن اذا كان الغرض بث افكار فى عقولها أو معتقدات فى نفوسها كالافكار الاشتراكية العصرية فالوسائل غير ما

تقدم . واخص ما يستعمله القواد منها ثلاث : التوكيد . والتكرار . والعدوى . ولذلك تأثير بطيء الا انه متى انبث فيها المطلوب لزمها زمناً طويلا

فاما التوكيد فانه من أهم العوامل لبث الفكر فى نفوس الجماعات متى كان بسيطاً خالياً من التعقل والدليل . وكلما كان التوكيد موجزاً ومجرداً عن كل ماله مسحة الحجة والتقرير كان عظيم التأثير . هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التوكيد فالتوكيد قيمته يعرفها أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسى واهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالنشر عنها

الآن قيمة التوكيد هى بدوام تكراره بالالفاظ عينها ماأمكن ذلك . وأظن ان نابوليون هو القائل بان أهم صيغ البيان التكرار فاذا تكرر الشيء رسخ فى الاذهان رسوخا تنتهى بقبوله حقيقة ناصعة .

للتكرار تأثير فى عقول المستنيرين وتأثيره اكبر فى عقول الجماعات من باب أولى . والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها اسباب

افعال الانسان . فاذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحدمنا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر . وهذا هوالسرفى تأثير الاعلانات العجيب . يقرأ الواحد مائة مرة ان احسن الحلوى ماكان من صنع زيد فيخيل اليه من التكرار انهسمع ذلك من مصادر شتى وينتهى باعتقاد صحة الخبر. ويقرأ ألف مرة ان دقيق فلان شفى اعاظم القوم من مرض عضال فيميل الى التجربة ان اصيب بمثل المرض المذكور . ويقرأ كل يوم فى الصحف ان زيداً من الانذال وعمراً من الفضلاء فينتهى باعتقاد ذلك الا اذا كان يقرأ دائماً فى جريدة أخرى ما يخالفه فانه لا يفل التكرار الا التكرار

ومتى كثر تكرار أمر واجمع المكررون عليه تولد من عملهم تيار فكرى يتلوه ذلك المؤثر العظيم اى العدوى كما وقع ذلك فى بعض المشروعات المالية الشهيرة التى تمكن أصحابها بثروتهم من كسب كل قادر على معونتهم لان للافكار والمشاعر والتأثرات والمعتقدات عدوى فى الجماعات تماثل فى قوتها عدوى المكروبات وذلك امر طبيعى لوجوده فى الحيوانات متى اجتمعت فالفرس يقبع فى مربطه فتفعل فعله

الخيل كلها . وتجزع الشاة او تضطرب فى حركتهافتفعل الغنم مثلها . كذلك لحركات الانسان فى الجماعةعدوى سريعة جداً وهذا هو السبب فى سرعة انزعاج الكل لفزع الواحد بينهم . حتى ان اختلال القوى العقلية معد . وكثير ماهم اطباء المجانين الذين جنوا . وشاهد بعضهم نوعا من الجنون تنتقل عدواه من الانسان الى الحيوان

ولا يجب فى العدوى وجود الافراد الكثيرين فى مكان واحد بل يجوز أن تحصل عن بعد من الحوادث التى تتحد لاجلها وجهة افكار المتأثرين بها فتجعلهم بذلك كالجماعة لاسيما اذا كانت النفوس مهيأة من قبل باحد العوامل البعيدةالتى مر ذكرها . ذلك ما كان من ثورة سنة ١٨٤٨ فانها بدأت فى باريس وما عتمت ان امتدت الى قسم كبيرمن اوروبا وهزت اركان كثير من الممالك

قالوا ان لحب التقليد تأثيراً كبيراً فى الناس وليس التقليد الا أثراً بسيطاً من العدوى . وقد بينت اثر التقليد منذ خمس عشرة سنة فى غير هذا الكتاب فاكتفى بايراد ماقلته اذ ذاك مما شرحه بعد ذلك الكتاب حدثاً

« الرجل شبيه بالحيوان يميل بطبعه الى التقليد . فالتقليد من حاجاته على شرط سهولته . وهذه الحاجة هى التى تجعل للبدئ (المودة) تأثيراً كبيراً . والقليل من الناس لا يقلد سواء كان ذلك فى الافكار او الاراء أو الادبيات او اللباس لان الذى تقاد به الجماعات هو المثال لا البرهان . ولكل عصر اناس قليل عددهم يستحدثون البدىء فيقلدهم ابناء عصرهم فيها . وانما يشترط ان لا يبتعد المبتدع كثيراً عن المألوف حتى لا يصعب التقليد فيضعف تأثير المبتدع ولذلك لم يكن للذين فاقوا عصرهم من كبار الرجال تأثير فى قومهم الا نادراً لبعد البون بينهما . ومن هنا قل تأثير الاوروبى فى الشرقى مع ما للاول من المزايا المدنية لان الخلف شديد بين الرجلين

يتشابه اهل كل عصر فى كل امة بتأثير الزمن وتبادل التقليد حتى الذين يخيل انهم متفاوتون كالحكماء والعلماء والادباء فانك ترى على افكارهم وما يكتبون صبغة عشيرة واحدة تدلك فى الحال على انهم ابناء عصر واحد . ولا يلزم ان يطول الحديث مع رجل لمعرفة الدرس الذى يصبو اليه . والعمل

الذى اعتاده . والبيئة التى يختلف اليها »[١]

ويبلغ تأثير العدوى الى حد أنه يتعدى توحيد الافكار الى توحيد كيفية التأثر بالحوادث . فالعدوى هى التى تنفر من الشىء فى وقت من الاوقات ثم ترغب فيه ثانية من كان اشد الناس بغضاً له كما وقع فى (تانها وزر)[٢]

والعدوى هى الاصل فى انتشار افكار الجماعات ومعتقداتها لا الحجج والبراهين ففى الخمارة تتولد افكار الفعلة من طريق التوكيد والتكرار والعدوى . وقليلا ما تولدت افكار الجماعات فى كل عصر من غير هذا الطريق . وقد اصاب (رنان[٣]) اذ شبه مؤسسى النصرانية الاولين

---

(١) راجع كتاب الانسان والهيئة الاجتماعية لمؤلفه جوستاف لوبون سنة ١٨٨١ جزء ٢ ص ١١٦

(٢) رواية وضعها وجنر نفر الناس منها أولا ثم أعجبوا بها

(٣) حكيم مشهور بفرنسا فى اواخر القرن الماضى وكان قسيسا فى مبدأ أمره وهو صاحب الكتاب المعروف المسمى (حياة المسيح)

« بالفعلة الاشتراكيين الذين ينشرون مبادئهم من خمارة الى اخرى » وقال (فولتير)[1] قبل ذلك بالنسبة للديانة المسيحية « انها استمرت لايدين بها الا اخس الناس مدة مائة عام »

ويؤخذ من الامثلة المتقدمة ان العدوى فى مثل تلك الاحوال تبتدىء فى الطبقات النازلة ثم تصعد منها الى الطبقات الرفيعة ونحن الآن نشاهد هذه الظاهرة فى مذهب الاشتراكيين لانه بدأ يمتد بين الذين يخال انهم سيكونون اول ضحاياه . لكن قوة العدوى شديدة بحيث يضعف امامها أثر المنافع الذاتية

هذا هو السبب فى ان الفكر اذا انتشر بين طبقات العامة لابد له من الانتشار ايضاً بين بقية طبقات الامة الى ارفعها وان كان فاسدا بعيدا عن الصواب . وهنا رد فعل يشرئب من الطبقات الدنيا الى الطبقات العليا . وذلك من اغرب المشاهدات الاجتماعية لان الافكار العامة لاتأتيهم دائما الا من افكار عالية تخلف عنها أثرها فى البيئة التى ولدت فيها فيتناولها قائدو الجماعة بعد ان تمكن منهم ويشوهونها ثم

(١) اشهر كتاب الفرنساويين فى القرن الثامن عشر

يؤلفون فئة تزيد فى تغييرها . ثم يبثونها فى الجماعات وهذه تضاعف التغيير . ثم تصير حقيقة عند العامةوبعد ذلك تصعد الى منبعها فتتمكن من نفوس الطبقة العالية . وعلى هذا يكون العقل هو الذى يحكم الدنيا ولكن من بعد باعد . فقد تفنى عظام الحكماء الذين يوجدون الافكار وتصير ترابا ويمر عليها كذلك الزمن الطويل قبل ان تسود الافكار التى اوجدوها

٣

النفوذ

مما يساعد كثيراً على قوة تأثير الافكار التى بثت فى الجماعات بواسطة التوكيد والتكرار والعدوى كونها تنتهى باكتساب قوة خفية تسمى النفوذ

للنفوذ قوة لاتقف امامها قوة اخرى . وكل سلطةسادت فى الوجود سواءكانت سلطة الافكار او الرجال فهوالسبب فى قيامها وسيادتها.والنفوذكلمةيعرف الجميع معناهاولكنهاتستعمل استعمالات كثيرة . ولذلك لم يكن من السهل تعريفها . وقد

يجتمع النفوذ مع بعض المشاعر كالاعجاب او الرهبة . وربما كان الاثنان اصلا له فى احوال كثيرة . الاّ انه قد يوجد بدونهما . مثل نفوذ الذين ماتوا فانه لا محل للخوف منهم . ودليل ذلك ان اكثر من نشعر بنفوذه فيناهم من الذين ارتحلوا عن هذه الدار ولم نعد نخاف منهم مثل الاسكندر وقيصر ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وبوذا . كذلك لبعض الكائنات او البدع تأثير فى النفوس وان كان مما لا يعجب به كالآلهة المنغوليين الذين يوجدون فى معابد الهند التى تحت سطح الارض

ويمكن ان يقال ان النفوذ عبارة عن سلطة رجل او عمل او فكر يستولى بها على العقول . وتلك السلطة تعطل ملكة النقد فتملأ النفس اندهاشاً واحتراما . ولا يمكن تفسير الشعور الذى يحدث منه كما هو الشأن فى كل شعور . الا انه لابد ان يكون من جنس الاجتذاب الذى يحدث فى نفس الشخص النائم نوما مغناطيسياً . والنفوذ اعظم مقوم لكل سيادة فى العالم اذ لولا هو ما ساد الآلهة والملوك والنساء

ثم النفوذ انواع يمكن حصرها فى قسمين . النفوذ المكتسب

والنفوذ الشخصي . فالاول هو الذى يرجع لاسم صاحبه او ثروته او شهرته . وقد يكون منفصلا عن النفوذ الشخصي واما النفوذ الشخصي فهو امر ذاتى قد يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة ويشتد بانضمامها اليه . وقد يكون وحده

واكثر النوعين شيوعا هو النفوذ المكتسب اوالعرضى فهو يثبت للرجل بمجرد كونه يشغل مركزاً او يملك ثروة او يتحلى ببعض الالقاب وان لم يكن له قيمة من نفسه فللجندى فى لباسه وللقاضى فى زيه الرسمى نفوذ ما ارتديا لباسهما . ولذلك قال (باسكال) بضرورة الجبة والشعر للقضاة[١]

---

(١) للالقاب والاوسمة والشارات تأثير فى الجماعات فى كل بلد حتى التى يبلغ فيها استقلال الفرد وحريته ارفع الدرجات . وانى أنقل هنا جملة غريبة من كتاب حديث نشره أحد السياح بيانا لنفوذ بعض العظماء فى انكلتره قال « لاحظت مرارا ان اجتماع احد الحائزين لقب (بير) مع أكبرهم عقلا وتمييزا يحدث فى نفوس هؤلاء شعوراً يكاد يكون سكراً من نوع خاص . فمتى كان له من اليسار ما يرتكز عليه لقبه فهم يحيونه قبل ان يروه . فاذا التقوا به تلقوا منه كل شيء فرحين . تحمر وجوههم سروراً بتقدمه . فاذا خاطبهم كتموا جذلهم فيشتد احمرار الوجنتين . ويظهر فى العينين بريق غير معهود . اللوردية

ولولا الجبة والشعر لفقدوا ثلاثة ارباع نفوذهم ولا يزال الاشتراكى كيفما اشتد جفاؤه يشعر بشيء من الاضطراب اذا رأى أميراً أو عظيما من الشرفاء ويكفى ان يكون هذا اللقب لرجل ليتمكن من النصب على التاجر فيما يشاء

والنفوذ الذى اشرنا اليه خاص بالانسان . وبجانبه يوجد النفوذ الذى يكون للافكار او الادبيات او الفنيات وغير ذلك وهو فى غالب الاحوال ناشيء من التكرار وما التاريخ وبالاخص تاريخ الاداب والفنون الا تكرار رأى سبق ولم يعارضه احد فيؤول الامر الى ان كل واحد يكرر ما قرأ فى المدرسة ووجدت بذلك اسماء واشياء لا يجرأ احد على الحديث فيها فمما لا شبهة فيه ان مطالعة « هومير » تورث قراء هذا الزمان مللا شديداً الا انه لا يجرأ احد على القول به و« البارتينون » اصبح اليوم خرابة تراكمت فيها الانقاض

فى دمهم كالرقص عند الاندلسى . والموسيقى عند الالمانى والثورة عند الفرنساوى . شهوتهم فى الخيل وشكسبير اقل من شهوتهم في الشرفاء وارتياحهم وتيههم لهؤلاء أكبر . كتاب تلك الرتبة عندهم فى رواج وهو كالتوراة موجود عند كل انسان

ولا فائدة منها . الا أن نفوذه لا يزال قويا حتى انهم لا يبصرونه كما هو الآن بل كما كان فى القدم محفوفا بأبهته وفخامته فمن خواص النفوذ ان لا يجعل الانسان يرى الشيء على حقيقته وان يعطل فيه ملكة النقد والتمييز

تحتاج الجماعات دائماً والافراد غالباً الى آراء حاضرة فى جميع المباحث وانتشار هذه الاراء غير مرتبط بما اشتملت عليه من الصواب او الخطأ بل مرجعه مالها من النفوذ

ننتقل الآن الى النفوذ الشخصى وهو يختلف مع النفوذ المكتسب لانه صفة تنفرد عن كل لقب وكل وظيفة يتصف بها أفراد معدودون فيبهرون بها نفوس من حولهم ويجذبونها اليهم كالمغناطيس وان ساووهم فى المنزلة بين أمتهم ولم يكن لهم شيء من وسائل التسلط والغلبة ويبثون فيهم افكارهم وينقلون اليهم مشاعرهم . وأولئك يطيعون امرهم كما يطيع الحيوان المفترس أوامر مروضه . وان كان فى استطاعته افتراسه بالسهولة لو اراد

كان هذا النفوذ الكبير لجميع العظماء من قواد الجماعات مثل بوذا وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وجان دارك

ونابليون.وهو السبب فى تمكنهم فانما تتسلط الآلهة والابطال والمذاهب تسلطاً لادخول للمناظرة فيه . بل ذلك السلطان يزول اذا بحث فيه

كان اولئك العظماء ذوى قوة اخاذة قبل اشتهارهم وتلك القوة هى السبب فى شهرتهم . فلما بلغ نابليون مثلا ذروة المعالى كان له نفوذ شامل بمقتضى منعته وسلطانه . الاّ انه كان له شئ منه يوم لم يكن له شئ من السلطة ولم يكن معروفا لدى احد فلما ترقى الى رتبة لواء (جنرال) وكان لا يزال مجهولا عهد اليه من كان مستصنعاً له بقيادة الجيش الفرنساوى المحارب فى بلاد ايتاليا فوجد نفسه بين لواآت عتاة اشداء وكانوا قد اجمعوا امرهم على الاغلاظ له فى المقابلة لاعتبارهم اياه دخيلا بينهم . ولكنه ما عتم ان اخذ بزمامهم من اول التقائه بهم بلا كلام ولا اشارة ولا وعيد بل باول نظرة من ذلك الذى قدر له ان يكون من العظماء . واليك كيف كان اللقاء

« جاء قواد الفرق الى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من هذا الرجل حديث النعمة وكان بينهم اللواء (اوجيرو) وهو

جندی عظیم الجثة غليظ الطبع . مختال بطول نجاده فخور بشجاعته وكان ممتعضاً ينساب بالشتائم على نابليون من يوم ان سمع به وعرف اوصافه فسماه صنيعة (باراس) ولواء الشارع ونعته بالدب لانه كان يحب التفكر منعزلا وذا سمنة صغيرة ومشهوراً بالرياضي الصغير وبالخيال فلما اكتملوا ادخلوهم غرفة الاستقبال فابطأ نابليون فى الخروج اليهم وبعد زمن بان لهم متقلداً سيفه ثم اتشح بردائه واخبرهم بنياته وانفذ اليهم اوامره واشار اليهم بالانصراف اما (اوجيرو) فقدتولاه الصمت ولم يرجع الى نفسه الا بعد ان خرج فجعل يسب كما كان يشتم من قبل ولكنه اقر مع زميله (مسينا) ان هذا القائد الصغير اوقع الرعب فى قلبه وانه حائر فى التأثير الذى اخذه به اول ما وقع بصره عليه »

صار نابليون من كبار الرجال فزاد نفوذه بمقدار ما اوتى من المجد واصبح فى اعين الجماعات مساوياللآلهة عندالمتعبدين اتفق ان القائد (فاندام) وكان جنديا ثوريا خشن الطباع جاف الاخلاق اكثر من زميله « اوجيرو » قصدذات يوم سراى تويلرى حيث نابليون وذلك سنة ١٨١٥ ومعه القائد

(اورنانو) فقال الاول للثاني وهما صاعدان فوق سلم القصر يحدثه عن نابليون « ايها الصديق ان لذلك الرجل الشيطان في نفسي تأثيراً لست ادرك كنهه حتى انك لتراني مع كوني لا اخاف الله ولا الشيطان اذا اقتربت منه تأخذني الرعشة كالطفل الصغير ويخيل الي انه قادر على ادخالي في سم الخياط واحراقي بالنار» وقد كان لنابليون مثل ذلك التأثير في جميع من يقترب منه (١)

---

(١) وكان هو يعلم ذلك من نفسه ويعلم انه يزيد فيه بمعاملته أكبر من حوله من الرجال معاملة لا تليق بعلاف الخيل على أنه كان من بينهم كثيرون من رجال الثورة الذين ازعجوا أوروبا . وروايات عصره مشحونة بالامثلة في هذا الموضوع . فمنها انه انتهر ذات يوم (بونيو) وسط مجلس شورى الدولة ونعته بخادم قليل التربية . فارتعد المشتوم . فاقترب منه نابليون وقال له « أثاب اليك رشدك ايها الابله الكبير » . وكان بونيو واقفاً على قدميه كالمارد فانحنى ملياً فمد الصغير يده وقبض على اذن الكبير . قال (بوندو) « علامة رضا تسكر من وجهت اليه وصفاء سيد يتلطف » . هذه الحوادث وامثالها تدل على ما يفعله النفوذ في النفوس اذ يجعلها تخنع خنوع الذلة والصغار . وتبين

هذا التأثير الذى فاق حد الاعجاب يبين لنا السبب فى الاستقبال العظيم الذى قوبل به نابليون يوم عودته من جزيرة « الب » وكيف انه افتتح ثانية بلا امهال قلوب الامة الفرنساوية وهو أعزل وليس معه معين وامامه جيوش تلك الامة المنظمة وكان الناس يظنون انها سئمت من جبروته عليها . حلف القواد الذين ارسلوا للقبض عليه ان يفعلوا فلن تكن الا نظرة منه اخضعتهم وهم صامتون وكتب القائد (ولسلى) فى ذلك يقول « نزل نابليون من السفينة الى بر البلاد الفرنساوية وليس معه الا قليل من رجاله الخصوصيين كانه فار من جزيرة « الب » الصغيرة التى كانت كل مايقدر ان يتسلط عليه فما لبث بضعة اسابيع حتى قلب نظام الادارة الفرنساوية كلها على مرأى من ملكها الشرعى وذلك من غير ان يريق قطرة دم لواحد من اهلها بل بمحض نفوذه الشخصى مما لم يسبق له مثيل فى الدنيا واعجب منه ما كان له من التأثير فى حلفائه اثناء هذه الحركة الطويلة التى ختمت فيها حياته العمومية

درجة احتقار ذلك الجبار العظيم لمن حوله فهو الذى كان يقول عنهم انهم لا يصلحون الا حشوا للمدافع

فانه كان يلجئهم الى تتبع خطاه حتى كاد يسحقهم لولا المقادير

مات نابليون ولكن نفوذه بقى حياً بعده او صار ينمو وتأثيره هذا هو الذى حمل الناس على الاعتراف بابن اخته امبراطوراً وكان من المستضعفين وها نحن اولاء اليوم نشهد ظهور اقاصيصه من جديد وذلك برهان على ان خياله لا يزال قويا فى النفوس . اسىء معاملة الرجال كما تشاء واقتلهم الوفا الوفا وانزل على البلاد غارة وغارة انك فى حل مما تصنع مادمت ذا نفوذ وكان فيك من الذكاء ما تحمى به ذاك النفوذ

رب قائل ولكنك قد اخترت التمثيل للنفوذ باكبر مثال عزيز المثال والحق انى اخترته عمداً لابين للقراء كيف ثبتت اركان الديانات الكبر . وقامت المذاهب العظام . وانشئت الممالك الواسعة اذ لولا تأثير النفوذ فى الجماعات ما كنا لذلك مدركين

لا يقوم النفوذ بالتأثير الشخصى والفخار العسكرى والرهبة الدينية دون سواها . بل يجوز ان يتسبب عن امر اصغر منها بكثير ويكون مع ذلك شديداً . ولنا من القرن الحاضر امثلة كثيرة اكبرها مثال سيتوارثه السلف عن

الخلف جيلا بعد جيل . وهو الذى نره فى تاريخ ذلك الرجل العظيم الذى غير وجه البسيطة كما غير طرق المواصلات التجارية بين الامم يوم ان فصل بين القارتين . وقد كان السبب فى نجاحه ما اوتيه من قوة الارادة . ولا تنس تأثيره الذى كان ينفذه الى نفوس مخالطيه . كان الناس كلهم اضداداً له فاذا ما وجد فيهم انقلبوا برأيه معجبين . واذا خاطبهم اسكرتهم عذوبة القول فاصبحوا بعد النفور احبة صادقين ولقد انفرد الانكليز بالشدة فى معارضته فلما ظهر فى بلادهم صاروا له اعواناً مخلصين . ثم مرَّ بمدينة (سوثمبتون) فدقوا النواقيس فرحا بمقدمه وهم يفكرون الآن فى اقامة تمثال يخلد ذكره دهر الداهرين . قامت فى وجهه الحوائل من مادة ورجال وماء وصخور ورمال فقهر الكل وسخره فلما فاز اصبح لا يؤمن بالصعاب ولا يخشى الصدام واراد ان يبدأ عملا جديداً ففكر فى الذهاب من السويس الى باناما . وشرع فى العمل بالوسائل نفسها لكن الشيخوخة كانت قد اقبلت . واليقين لا يزحزح الجبال الا اذا لم تتصل بذروتها السماء . هنالك استعصى الجبل . وحم القضاء . ونزلت الكارثة فهدمت

صرح مجد اقامه ذلك البطل العظيم ان في حياته لمرشداً كيف يحيا النفوذ وكيف يموت. ابلغ الرجل في المجد ارفع منزلة رقيها كبار الرجال . وانزله قضاة امته الى اخس دركات المجرمين فلما مات مرت جنازته كانها تشيع نفسها بين الجماهير وهم عنه لاهون وانما ملوك الدول الاجنبية هم الذين ذكروه يوم مماته فاعربوا عن اعجابهم به كما يقع لاعاظم الرجال (١)

---

(١) لما مات دولسبس نشرت جريدة « نوى فراى بريسه » النمساوية بمدينة « فينا » مقالة في مآل ذلك الرجل جاءت فيها بخواطر جديرة بالامعان ولذلك تنقلها للقراء قالت « لم يبق موجب للعجب من مآل كريستوف كولمبو (١) الذي يثير الحزن والاسى بعد الحكم على « فرديناند دولسبس » لانه اذا كان فرديناند دولسبس نصابا فكل أمل من الآمال الكبار جرم عظيم ولو كان دولسبس من أهل العصور الاولى لتوجه اهل زمانه بابهى تاج من المجد والفخار . ولسقوه الرحيق في حجرة آلهتهم التي كانوا يعبدون لانه غير وجه الارض . واتى من الاعمال ما يدعو الى تحسين الخلق في الوجود

خلد رئيس محكمة الاستئناف اسمه في التاريخ بحكمه على دولسبس

---

(١) هو الذي اكتشف امريكا

الامثلة التي قدمناها تمد اقصى ما يبلغ النفوذ اليـه . فاذا

لأن الامم لا تنفك تسأل عن اسم الذي اجترأ غير هياب فحط من قدر عصره . والبس طاقية المجرمين رأس شيخ كانت حياته مجـداً ونخاراً لمعاصريه

« الا فليكفوا منذ اليوم عن ذكر العدالة بين ربوع تمكنت البغضاء من نفوس صغار الموظفين في مصالحها فحنقوا على كل من قام بعمل مجيد . الا ان الامم في حاجـة الى رجال ذوي عزم واقدام يثقون بانفسهم ويقتحمون كل صعب وهم لذواتهم غـير ملتفتين الا انه لا حذر لنابغ اذ لو كان حذراً ما امكنه ان يرقى هامة العصر الذي هو فيه

« ذاق فرديناند دولسبس حلاوة المجد وغضاضة الخـذل . السويس وبناما . وهنا يحق للنفس ان تغضب من اداب الفوز والانتصار فلما افلح دولسبس وجمع بين البحرين جاءته الملوك والامراء تهـديه التهاني . واليوم لمـا ادركه الفشل امام صـخور (كورديلير) كان نصاباً حقيراً . ان هذه الا حرب تقوم بين الطبقات في الامم يثيرها حقد الموظفين الذين الفوا المكاتب ولاذوا بقانون العـقوبات انتقاما ممن يصبو الى المجد والمعالي . ولقد يحار مشرعو هذي العصور امام تلك الافكار العالية التي يولدها النبغاء . والعامة في ذلك اقـل فهما وادنى ادراكا . لـكن من السهل على الافوكاتو العمومي اقامة البرهان على ان ستانلي من القتلة وان دولسبس من الخادعين

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطيء الهبـل

اردت ان تعرف ماهيــة النفوذ مفصلا وجب ان تضع تلك الامثلة فى اعلى السلم ثم تتدرج من منشئى الديانات ومقيمى الممالك حتى تصل الى الرجل البسيط الذى يحاول ان يبهر جاره بثوب جديد او وسام

وبين هاتين النهايتين درجات كثيرة من النفوذ تراها فى جميع اركان المدنيــة من علوم وفنون واداب .وترى النفوذ اول مؤثر فى تحصيل الاعتقاد . فالناس يقلدون ذا النفوذ عمداً او بمحض الفطرة سواء كان انساناً او رأياً او شيئاً آخر . ويتولد فى اهل عصر من قلدوه طريقة مخصوصة يحسون بها ويترجمون عما به يشعرون. ويكون التقليد فى الغالب فطريا لذلك يبلغ حد الكمال والاتقان. ومن ذلك ان مصورى هذه الايام اخذوا يعيدون رسم الصور ذات الالوان الباهتة والازياء العابسة التى تمثل اناساً من اهل الفطرة الاولى. وهم لا يشعرون من اين جاءهم هذا الميل ويظنون انهم هم الذين اوجدوه لانفسهم وفاتهم انه صنع احد كبار المصورين ولولا ذلك لاستمروا على النظر الى تلك الصور من جهة سذاجتها وانحطاط درجتها فى فن التصوير . ومنهم من قلدوا احـد

المشاهير فجعلوا يكثرون فى مصوراتهم من الظلال البنفسجية اللون مع انهم لا يرون هذا اللون منتشراً فى الطبيعة اكثر مما كان يراه غيرهم منذ خمسين عاماً . والواقع انهم متأثرون بفعل استاذ من عظماء اساتذة الفن كانت له فى ذلك التلوين شهرة فائقة وان كان هذا الاختراع مما يعد غريبا . وامثال المصورين كثيرة فى جميع عناصر المدنية

ويؤخذ مما تقدم ان النفوذ يتكون بعوامل شتى أهمها النجاح . فمتى نجح الآمر فى امره دانت له الناس وبطلت معارضتهم له وكذلك الفكر اذا تمكن من العقول والدليل على ان النجاح اقوى عامل فى تحصيل النفوذ ان هذا يذهب بذهاب ذاك . فالناس يهللون فى المساء لبطل كلل بالنصر ويسخرون منه فى الصباح اذا قلب له الزمان ظهر المجن . وبقدر النفوذ يكون انعكاس الرأى فى صاحبه اذا تولته الخيبة فتراه الجماعة من اندادها فتميل الى الانتقام منه جزاء ذلها امام سلطانه الذى لم تعد تعترف له بشىء منه . هكذا كان نفوذ روبسبير شديداً يوم كان يقطع رؤوس زملائه ورؤوس الكثير من معاصريه . فلما ضاعت منه بعض الاصوات

وقت الانتخاب وسقط من مركزه فارقه النفوذ لساعته . وشيعته الجماعة الى المشنقة وهى تتميز من الغيظ كما كانت تشيع بالامس ضحاياه . ومن عبد الآلهة وزاغ عنها كاد يقتله الغضب وهو يحطم الاصنام

يذهب الخذلان بالنفوذ فجأة وقد يذهب النفوذ بالبحث فيه . لكن ذلك لا يتم الا بالتدريج . وهذه الوسيلة هى اضمن الوسائل لاضاعته وما من اله او انسان دام له النفوذ زمناً طويلا الا كان لا يحتمل المناظرة فيه . انما تعجب الجماعات ممن يترفع عن مقامها

الفصل الرابع

حدود تقلب معتقدات الجماعات وافكارها

---

(١) فى المعتقدات الثابتة — في عدم تقلب بعض المعتقدات العامة — فى ان هذه المعتقدات هى التى تهتدى بها المدنية — في صعوبة ازالتها — فى ان التعصب احد فضائل الامم من بعض الوجوه — في ان بطلان معتقد عقلا لا يؤثر فى انتشاره ورسوخه

(٢) — فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة — فى ان الافكار التى لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير — فى ان تغيير المعتقدات والافكار يظهر فى أقل من قرن واحد — فى حدود هذا التغير الحقيقية — فيما يكون فيه التغير — فى ان زوال المعتقدات العامة فى العصر الحاضر وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد فى كثرة تغير الافكار — فى ان أفكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال — فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق — فى أن تشعب الافكار في الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

١

فى المعتقدات الثابتة

يوجـد بين الخواص التشريحية اى الجسمانية والخواص النفسية تشابه تام . فمـن الاولى ماهو ثابت اولا يتغير الا ببطء شديد بحيث يلزم لتغييره زمن كالذى بيننا و بين الطوفان. ومنها ما هو متقلب يتغير بالسهولة من أثر البيئة أو المربى . وقد يبلغ التغيير درجة تختفى فيها الخواص الاصلية على غـير المتأمل

وكذلك الحال فى الخواص الأدبية . فمن اخلاق الشعب ماهو ثابت لا يغيره كرور الايام . ومنها ما هو متقلب يتغير. ومن ينعم النظر فى معتقدات الامم وافـكارها يرى دائما فى اخلاقها اصلا ثابتاً ترسب فوقه افكار متقلبـة كما ترسب الرمال فوق الصخر

وعليه تنقسم معتقدات الجماعات الى قسمين الأول المعتقدات الدائمـة التى تعمر عدة قرون واليها ترجع مدنية

الأمة كلهـا . كالاقطار التى سادت ايام حـكم الشرفاء والمعتقدات المسيحية وافـكار الاصلاح (البروتستانتية) وكالجنسية . والافـكار الديموقراطيـة والاجتماعية فى ايامنا والقسم الثانى يشمل الافـكار الوقتية المتغيرة . وهى مشتقةفى الغالب من الافكار العامة تظهر وتغيب فى الجيل الواحـد كالنظريات التى تسترشد بها الفنون والادب في اوقات معلومة ومذهب حرية الـكتابة (الا نشأ) [١] ومذهب الطبيعيين ومذهب الصوفية . وهكذا . وتلك الافـكار كلها سطحية سريعة التغير كالبدىء (المودة) فمثلها كمثل الامواج الصغيرة التى تظهر وتختفى من دون انقطاع على سطح بحيرة عميقة

المعتقدات الـكبيرة العامة قليلةجدا . وقيامها وسقوطها فى كل امة ذات تاريخ يمثلان اعظم دور فى حياتها . ولاقوام للمدنية بدونها

---

(١) هو مذهب يقول أصحابه بعدم وجوب التقيد دائماعاجرى عليه السلف فى فن التحرير من التزام قواعد وتراكيب مخصوصة

ومن السهل جداً ايجاد فكر وقتى فى عقول الجماعات لكن من الصعب جداً تقرير معتقد دائم فى نفوسها كما انه من الصعب جداً هدم اعتقاد تمكن منها . ولا سبيل الى التغيير غالباً الاّ بالثورات العنيفة بل ان الثورة لا تؤدى الى ذلك الا اذا اضمحل قبلها أثر المعتقد فى النفوس. فهى تصلح لكسح تلك البقية التى تكاد تكون فى حكم المهمل لولا ان سلطان العادة يمنع من الاقلاع عنها بالمرة . فالثورة التى تقبل عبارة عن معتقد يدبر

ومن السهل تجديد اليوم الذى يندك فيه احد المعتقدات الكبرى ذلك هو يوم ياخذ الناس بالبحث فى قيمة هذا الاعتقاد لان كل اعتقاد عام يكاد يكون امراً فرضياً . فهو لا يحتمل البقاء الا بشرط عدم البحث فيه

غير ان النظامات التى اسست على اعتقاد عام تستمر حافظة لقوتها ولا تتحلل الا ببطء وان تزعزع ذلك الاعتقاد فاذا تم له الهدم تساقط ما بنى عليه

ومما قضت به سنة الوجود حتى الآن ان كل امة اصبحت متمكنة من تغيير معتقداتها لابد لها عاجلا من تغيير جميع

اركان حضارتها فهى تغير وتبدل فيها حتى تهتدى الى معتقد جديد عام ترضاه النفوس وتعيش فى فوضى حتى تعثر عليه فالمعتقدات العامة هى دعائم الحضارة التى لا بد منها وهى التى ترسم للافكار طريقها الذى تسيرفيه وهى التى توحى بالايمان وتفرض الواجبات

ادركت الامم على الدوام فائدة المعتقدات العامة وفطنت الى ان يوم زوالها هو يوم بدء سقوطها . عبد الرومانيون مدينة روما عبادة المتعصبين فسادوا على الدنيا اجمع . فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما . واستمر المتبربرون الذين خربوا ملكها على همجيتهم حتى اذا رسخت بينهم بعض المعتقدات العامة وجد فيهم شيء من الامتزاج والتآلف وخرجوا من الفوضى

وعليه تعذر الامم فى دفاعها المستميت عن معتقداتها . اذ الحقيقة ان هذا التعصب هو ارقى الفضائل فى حياة الامم وان كان مذموماً جداً من الجهة الفلسفية

ما احرق اهل القرون الوسطى الالوف من الناس الا للدفاع عن معتقد عام موجود أو لادخال معتقد عام جديد فى النفوس وما مات

الكثير من المخترعين والمبتدعين والاسى ملء قلوبهم الا انهم لم ينالوا قسطاً من العذاب لاجل تلك المعتقدات وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة الا للدفاع عنها . وما ماتت الملايين فى ساحة الوغى الا بسببها . وكذلك يكون فى مستقبل الايام

من الصعب غرس معتقد جديد لكنه بعد ان يتمكن من النفس يدوم شديد التأثير زمنا طويلا وكيفما كان خطأً من الجهة الفسلفية فانه يتسلط على أكبر ذوى الالباب . بدليل ان الامم الاوروباوية دانت لاقاصيص واعتقدتها حقائق لا شك فيها خمسة عشر قرنا . والمتأمل فى تلك الاقاصيص يراها أحق بالقوم الهمج [1] كاقاصيص (مولوخ) [2] هكذا بقى العالم قرونا وهو لا يفقه تلك الخرافة الرائعة القائلة بان

---

(١) أقول الهمج من حيث الفاسفة والنظر اما عملا فقدا وجدت تلك الاقاصيص مدنية جديدة صرفة . وأبصر الناس من ورائها مدى خمسة عشر قرنا هاتيك الجنان دانية القطوف واحيت قلوبهم بالآمال مما لم يعودوا يذوقون حلاوته الآن

(٢) اله عبده الكلدانيون واهل قرطاجه وكانوا يحرقون الاطفال قرباناً له ويعتقدون انه يمد ذراعيه دائما ليتلقاها (م)

الهاً اذاق ابنه عذاب الهون انتقاما ممن عصاه من خلقه .ولم يجل بخاطر اعظم الرجال عقلا وادراكاً مثل (غاليله) و (نيوتن) و (لا يبنيتز) انه يجوز النظر فى حقيقة هذه الافكار . ذلك مما يبرهن على قوة استيلاء المعتقدات العامة وسحرها النفوس . ولكنه يبرهن ايضاً على ان العقل محدود بحدود مخجلة

ومتى تمكنت عقيدة جديدة من نفوس الجماعات اصبحت مصدر نظاماتها ومرجع فنونها وقاعدة سيرها . هنالك يستحكم سلطانها وتتم غلبتها . فترى أهل العزائم لا يفكرون الاَّ فى تحقيقها . وواضعى القوانين الا فى الاخذ بها . والفلاسفة وأرباب الفنون والكتاب الا فى تمثيلها على صور شيء

وقد يتولد عن العقيدة العامة افكار وقتية ثانوية الا انها تكون على الدوام مصبوغة بصبغتها فقد تولدت حضارة المصريين وحضارة الاوروبيين فى القرون الوسطى وحضارة المسلمين من عقائد دينية قليلة العدد طبعت كل عقيدة منها خاتمها على كل جزئية من جزئيات حضارتها وسهلت بذلك معرفتها .

من هـذا يتبين ان الفضل للعقائد العامة فى احاطة أهل كل عصر بتقاليد وافكار وعادات تقيدوا بها وصاروا متشابهين والذى يهـدى الناس فى سيرهم انما هى الافكار والعادات المتولدة عن تلك العقائد فهى الحاكمة على اعمالنا جليلها وصغيرها وكيفما سمت مداركنا فانا لا نفكر فى الخلاص منها . اذ الاستبداد الحقيق هو الذى يدخل على النفوس من طريق الغرائز . لانه هو الذى لا يتمكن المرء من محاربته. فلقد كان (تيبير) و (جنكيزخان) و (نابوليون) جبارين مستبدين ولـكن استئثار « موسى » و « بوذا » و « عيسى » و « محمد » صلى الله عليه وسلم و « لوتر » وهم فى القبور أشد وأبقى . ان مكيدة قد تبيد سطوة الجبار ولـكن ماذا ينفع الـكيد فى عقيدة استقرت فى النفوس . قامت حرب عنيفة بين الثورة الفرنساوية والدين المسيحى وكانت الجماعات فى ظواهر الامر من جانب الاولى واستعمل الثوار من وسائل القهر والاضطهاد ما استعمله الاندلسيون والثورة هى التى دارت عليها الدائرة انما الجبابرة الذين سادوا فى البشر هم خيال الاموات أو الاوهام التى اوجدتها الامم لنفسها

ما كان بطلان العقائد العامة من حيث النظر والفلسفة مانعاً من استظهارها وقد يظهر أن فوزها مشروط باحتوائها على شيء من الهزء الخفي واذا كانت مذاهب الاشتراكيين في العصر الحاضر واضحة الضعف فليس ضعفها هذا هو الذي يكون سبباً في عدم استيلائها على نفوس الجماعات . وانما السبب في انحطاطها عن جميع العقائد الدينية راجع الى ان السعادة التي وعدت بها الديانات لا تتحقق الا في الدار الباقية فلم يكن لاحد ان يماري في تحقيقها واما السعادة التي وعد بها مذهب الاشتراكيين فانها يجب ان تتحقق في الحياة الدنيا ومتى شرع في ذلك بان ان الوعد خلب وسقط بذلك نفوذ العقيدة الجديدة وعليه فلا يعظم سلطان هذه العقيدة ان تم لها الظفر الا الى اليوم الذي يبدأ فيه بتحقيقها وذلك هو السبب في ان هذا الدين الجديد له من قوة التخريب ما كان لغيره من الاديان التي سبقته ولكنه لن يكون له ما كان لها من قوة النبأ

٢

فيما للجماعات من الافكار غير الثابته

يوجد فوق سطح العقائد الثابتة التى شرحنا تأثيرها العظيم طبقة من الافكار والاراء التى تتجدد وتزول دائماً . فمنها ما يدوم يوماً واحداً . وأهمها لا يدوم اكثر من الجيل الذى نشأ فيه . وقد قدمنا ان التغيير الذى يطرأ على هذه الافكار صورى اكثر مما هو حقيق فى الغالب . وانها مصبوغة على الدوام بصبغة الشعب الذى توجد فيه . ومثلنا لذلك بنظام بلادنا السياسى فأوضحنا ان أشد المذاهب خلفاً من ملوكيين وجمهوريين وامبراطوريين واشتراكيين وهكذا يشتركون فيما يرمى جميعهم اليه وان هذا المرمى راجع الى طبيعة شعبنا النفسية او الادبية واستظهرنا على ذلك بوجود اسماء هذه النظامات

وانها عنـد أمم أخرى ودلالتها على شيء آخر وبأن وضع الاسماء للافكار والباس الشيء ثوباً يريه في صورة غيره لا يغير من حقيقة ذلك الشيء . كان أهل الثورة الفرنساوية متشبعين بادبيات الرومانيين شاخصين على الدوام الى جمهوريتهم فنقلوا اليهم شرائعهم وقضبانهم[1] وارديتهم واجتهدوا في تقليدهم في نظاماتهم واحوالهم . ومع هذا لم يصيروا رومانيين لانهم كانوا محكومين بتقاليدهم التاريخيـة . ووظيفة الحكيم هي استخلاص مابقي من العقائد الاصلية وسط التقلبات الصورية وان يميز في معمعة الافكار المتغيرة ما يرجع منها الى روح الشعب وعقائده العامة

واذا لم يوجد هذا الفارق الفلسفي جاز الظن بأن الجماعات تغير كثيراً عقائدها الدينية والسياسية كما تشاء . والظاهر ان التاريخ يؤيد هذا الظن سواء كان تاريخ السياسة او الدين أو الفنون أو الادب . لانا اذا نظرنا في تاريخنا الى الفترة القصيرة الواقعة بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٨٢٠ اعني ثلاثين سنة وهو عمر جيل واحد رأينا الجماعات التي كانت ملوكية تحولت

---

(١) شارات القوة والعظمة عند الرومانيين

فصارت ثورية للغاية ثم امبراطورية كذلك ثم عادت ملوكية كما كانت هذا في السياسة واما في الدين فانها كانت كاثوليكية ثم كفرت ثم قالت بالالوهية ثم رجعت الى الكثلكة الضيقة الى حد التغالى ولم يكن ذلك شأن الجماعات وحدها بل شاركها فيه كله قوادها فشهدنا والعجب يأخذ منا أولئك الثوار الذين تقاسموا على بغض الملوك وانكروا الله والسلطان امسوا خداماً خاضعين لنابوليون. واصبحوا يحملون الشموع والخشوع ملء جوانحهم فى احتفالات الملك لويز الثامن عشر

وما اكثر الانقلابات التى طرأت على افكار الجماعات فى السبعين سنة التالية. فقد صار الانكليز حلفاء أمة الفرنساويين فى عهد خليفة نابوليون. وكانوا فى أول القرن أعداء ماكرين واغرنا مرتين على بلاد الروس وكم خفقت قلوبهم فرحا بانكسارنا ثم صاروا لنا أصدقاء

واسرع من ذلك تقلب الافكار فى الادب والفنون والفلسفة فكنا لا نتقيد بقواعد اللغة. وكنا طبيعيين وكنا صوفيين. وكنا غير ذلك كل هذا ظهر واختفى. وكان الناس

يتغنون باسم هذا الكاتب او ذاك المصور في المساء فاذا أصبح الصباح حقروه ورذلوه

واذا دققنا البحث فى هذه التقلبات التى يخال انها حقيقية متأصلة فى النفس رأينا ان ما كان منها مخالفاً للاعتقادات العامة ومشاعر الشعب فهو زائل لا يدوم الا يسيراً ولا تلبث المياه أن تعود الى مجاريها . فمن المعلوم انه يستحيل دوام الافكار التى لا رابطة بينها هى والمعتقدات العامة ومشاعر الشعب لانها معرضة لتأثير الطوارئ والاتفاق تتغير باقل تغيير فى البيئة التى وجدت فيها . ومما يدل أيضاً على عدم بقائها انها تولدت من طريق الالقاء والعدوى فهى تولد ثم تموت بسرعة الرمل الذى يتكون اكداساً على شاطئ البحر ثم تذهب به الريح ثم تعيده وهكذا

ولقد كثرت فى أيامنا هذه افكار الجماعات التى لا بقاء لها . ولذلك ثلاثة أسباب

الاول ان الاعتقادات القديمة أخذت تضعف شيئاً فشيئاً فلم تعد تؤثر فى الافكار العرضية تأثيراً ينظمها ويهديها وضعف تلك الاعتقادات العامة من شأنه ان يفسح المجال لتولد أفكار

خاصة لا رابطة بينها هى والماضى ولا يرجى بقاؤها فى المستقبل

السبب الثانى ان قوة الجموع تزداد شيئاً فشيئاً والقوة المضادة تضعف بمقدار ذلك وقد عرفنا ان الجماعات كثيرة التقلب فى افكارها فالنتيجة انها أصبحت أكثر حرية فى اظهار تلك الافكار المتقلبة

والسبب الثالث هو كثرة انتشار المطبوعات لما فيها من كثرة الافكار المتناقضة التى تعرضها على الجماعات فالفكرة لا تكاد تظهر حتى تبطل بظهور فكرة تخالفها وما من فكر ينتشر تماماً وكلها محكوم عليها بسرعة الزوال فهى تموت قبل ان تنتشر انتشاراً يثبتها ويجعلها معتقداً عاماً

من تلك الاسباب تولدت ظاهرة جديدة فى تاريخ البشر ينفرد بها العصر الحاضر وهى ضعف الحكومات عن قيادة الرأى العام

كان زمام الرأى فى الزمن السابق ما هو فى يد الحكومات وبعض ذوى النفوذ من الكتاب وعدد مخصوص من الجرائد فأما الكتاب فقد انعدم تأثيرهم . وأما الجرائد فان

وظيفتها أصبحت قاصرة على أن تكون مرآة للرأى وأما السياسيون فانهم لا يديرونه بل يسيرون خلفه . وقد أخذتهم منه رهبة تكاد أحياناً تبلغ حد الذعر والانذهال فهم لا يثبتون فى أى طريق يسلكون

نتج من هذا ان رأى الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام السياسة . وقد وصل الآن الى الجاء الامم لعقد المحالفات كما وقع اخيراً فى المحالفة الروسية التى كانت حركة الرأى العام مصدرها الوحيد . ومن اعجب ما يشاهد الآن استسلام البابوات والملوك والقياصرة لنظام الاحاديث (١) ليصرحوا بأفكارهم ويعرضوا آراءهم فى أمر من الامور الى حكم الجمهور . قالوا فيما مضى ان السياسة ليست من الامور التى تسيرها المشاعر وانا نشك فى انه يمكن القول بذلك الآن بعد ما بان ان نزعات الجماعات تقودها كل يوم اكثر من الذى قبله والجماعات لا تعرف العقل ولا تندفع الا بالمشاعر

واما الجرائد فبعد ان كانت تقود الرأى العام كالحكومات

---

(١) يشير الى ما الفه الناس فى هذه الايام من محادثة الملوك والعظماء و نشر احاديثهم فى الكتب والصحف

اضطرت الى التسليم امام سلطان الجماعات نعم للجرائد أثر
شديد فى الناس لكن ذلك سببه انها صارت مرآة لارائهم
ومتغيرة بتغير افكارهم المستمر . أصبحت الجرائد رسل اخبار
فلم تعد قادرة على نشر رأى او تقرير مذهب بل هى تسير
خلف اهواء الجماعات مكرهة على ذلك بحكم المسابقة والتزاحم
والا خسرت قراءها ألا ترى الجرائد الكبرى القديمة التى
كان لها المقام الاول والتأثير القوى مثل (لوكونستيتوسيونيل)
و (الديبا) و (السييكل) وهى التى كان يتلقى آباؤنا أقوالها
كالوحى المنزل من السماء قد احتجبت أو صارت صحف
أخبار محلاة ببعض الفكاهات القصصية ولطائف المجتمعات
والاعلانات التجارية . لا توجد اليوم جريدة تسمح ماليتها
للمحررين بابداء آرائهم الذاتية على انها ان وجدت ما كان
لتلك الاراء والافكار قيمة عند القراء لانهم انما يطلبون خبراً
يقرأونه او نكتة يتفكهون بها وصاروا فى ريب من كل رأى
و نصيحة توجه اليهم اذ يظنون ان وراءها طمعاً فى ربح أو
سعياً لمنفعة خاصة . بل ان اهل النقد أصبحوا لا يجرأون على
نشر كتاب أو رواية تمثل فى المراسح فان النقد صار مما قد

يجلب الضرر ولا يجر اليهم نفعاً . أيقنت الجرائد بعدم الفائدة من النقد او ابداء الاراء الشخصية فجعلت تقلل منه فى عالم الادب حتى بطل واستعاضته بذكر اسم الكتاب الجديد متبوعاً بسطرين او ثلاثة للاعلان عنه والحث على اقتنائه وربما آل الامر الى مثل ذلك بعد عشرين سنة فيما يتعلق بنقد الروايات التى تشخص فى الملاهى

أصبح الشغل الشاغل للجرائد والحكومات تتبع حركات الرأى العام فالذى يهمهم من حادث يقع أو من مشروع قانون يحضر أو من خطاب يلقى انما هو أثر ذلك فى الناس وما ذلك بهين على طلابه لشدة تغير أفكار الجماعات فما أسرعها فى السخط على أمر لم تكد تفرغ من التهليل له

ينتج عن فقد ان ضابط للرأى واقتران ذلك بانحلال الاعتقادات العامة تفتت اليقين وتمزق الوجدانيات وعدم اهتمام الجماعات بشىء لا تظهر فيه لها منفعة حاضرة ظهوراً تاماً وأما المذاهب كالاشتراكية فان حماتها المخلصين من أجهل الطبقات كعمال المعادن والمصانع أما متوسطو الحال وكل من ناله قليل من التعليم فهم فى شك من كل شىء أوهم

كثيرو التقلب

التطور الذى تم من هذه الجهة فى الخمس والعشرين سنة الماضية واضح . فقبل ذلك والعهد قريب كان للافكار وجهة عامة لانها كانت مشتقة من بعض اعتقادات أصلية . وكان للملوكى بمقتضى كونه ملوكياً افكار واراء ثابتة فى التاريخ وفى العلوم . وكان للجمهورى بمقتضى كونه جمهوريا افكار واراء تناقض الاولى على خط مستقيم . الاول يعتقد ان الرجل ليس متولداً من القرد والثانى يعتقد الضد تماماً . الاول يرى من الواجب عليه اذا تكلم فى الثورة ان يغضب وينفر والثانى ان يعجب ويبالغ فى التعظيم والتبجيل . وكان من الناس من لا يجوز ذكر اسمه الامقرونا بالخشوع والاجلال مثل (روبسبيير) و (مارات) أو متبوعا بالترذيل والامتهان مثل (قيصر) و (أوغسطس) و (نابوليون) . وعم هذا المذهب السخيف فى التاريخ حتى تفشى فى مدرسة (السربون) نفسها[1]

---

(١) يوجد فى هذا الباب بعض صفحات من كتاب المعلمين الرسميين فى مدارسنا غاية فى الغرابة وهى تدل على ضعف ملكة النقد الناشىء عن طريقة التربية فى المدارس وانى انقل للقراء الاسطر الآتية

. ليس لفكر ولا لرأى فى هـذه الايام وقع فى النفوس لكثرة المناظرة والتحليل مما يذهب بطلاوتها ولا يجعل تأثيرا للبقية والذى ينفرد به أهل هذا الزمان هو عدم الاهتمام بالامور شيئاً فشيئاً

على انه ينبغى ان لا نحزن من انتشار الافكار نعم لا شبهة فى انه منذر بانحطاط الامة لانه من المحقق ان تأثير اهل الخيالات والرسل وقواد الجماعات وعلى الاطلاق جميع الذين سكن اليقين قلوبهم اكبر جداً من تأثير اهل الجحود والنقادين ومن لا يهتمون بشىء لكن لا يذهب عنا انه اذا تمكن رأى واحد من النفوس والجماعات على ماهى عليه الآن من القوة والنفوذ لا يلبث اهله ان يصيروا مستبدين استبدادا

من كتاب الثورة الفرنساوية لاحد مدرسى التاريخ فى مدرسة (السربون) المذكورة قال « ان الاستيلاء على (الباستيل) عمل من اكبر اعمال تاريخ الامة الفرنساوية بل تاريخ اوروبا كلها لانه كان فاتحة دور جديد فى حياة الامم » وقال عن (روبسبير) « ان استبداده بالناس كان استبداد رأى ويقين ونفوذ أدبى وكان اشبه بسلطة روحية عليا فى يد رجل من الاخيار » (صفحة ٩١ و ٢٢٠)

يذل له كل مافى الوجود ويغلق باب حرية الافـكار وحرية النقد زمناً طويلا . لا يقال ان من سلاطين الجماعات من كان ندى الخلق لين الملمس لان طبعها قلب فهى هوائية سريعة الغضب والانفعال. فاذا قدر لحضارة ان تقع فى يدها اصبحت هـدفا للطوارىء والمصادفات وقصر بذلك اجلها . وان كان يرجى تأجيل زمن الانحدار والسقوط فانما يكون ذلك من شدة تقلبات اراء الجماعات وعدم اهتمامها بالاعتقادات العامة

الباب الثالث

اقسام الجماعات وبيان انواعها

الفصل الأول

اقسام الجماعات

اقسام الجماعات العامة — انواعها

١ — الجماعات المختلفة العناصر - اوجه اختلافها - تأثير الشعب — في ان روح الجماعات تكون ضعيفة بقدر ماتكون روح الشعب قوية - في ان روح الشعب تمثل حالة الحضارة وروح الجماعات تمثل حالة الهمجية

٢ - الجماعات المؤتلفة العناصر - انواعها - الافناء والطوائف والطبقات

بعدان بينا الصفات العامة للجماعات النفسية ينبغى ان نبين الصفات الخاصة التى تنفرد بها المجامع عن بعضها اذا صارت جماعات بتأثير الاسباب المؤدية الى ذلك

ولنبدأ بقول موجز فى تقسيم الجماعات

فاولها الجمع مطلقا وادنى مراتبه ما كان مؤلفاً من افراد ليسوا من شعب واحد ولا رابطة بينهم الا ارادة رئيسهم بقدر ماله من المنزلة فيهم ويمكن التمثيل لهذه المجامع بالمتبربرين مختلفى الاصول الذين أغاروا على المملكة الرومانية مدة قرون عدة

ويليها الجموع التى احتفتها احوال وعوامل ولدت فيها صفات عامة وانتهت بان صارت شعباً واحداً. ولهذه الجموع فى بعض الاحيان الصفات الخاصة بالجماعات الا ان هذه الصفات الخاصة تكون دائماً متأثرة بصفات الشعب العامة

فاذا اجتمعت فى هذه المجامع بقسميها العوامل التى ذكرناها فى هذا الكتاب صارت جماعات منظمة او نفسية وهذه الجماعات تنقسم الى الاقسام الآتية

اولا الجماعات المختلفة العناصر وفيها	(١) الجماعات التى لا اسم لها (كجماعات الطريق العام) (٢) الجماعات التى لها اسم خاص (كالعدول المحلفين والمجالس النيابية وهكذا)
ثانياً الجماعات المؤتلفة العناصر وفيها	(١) الافناء (كالجموع السياسية والدينية وهكذا) (٢) الطوائف (كالجموع العسكرية ورؤساء الدين والعمال وهكذا) (٣) الطبقات (كجموع الاواسط وجموع اهل الريف وهكذا)

واليك قولا موجزاً فى بيان مميزات كل نوع من هذه الانواع

القسم الاول

الجماعات المختلفة العناصر

هذه الجموع هى التى شرحنا صفاتها فى هذا الكتاب وهى

تتألف من افراد ايا كانوا و كيفما كانت حرفهم ومهنتهم وعقولهم ونحن الآن نعرف انه متى اجتمع قوم وكونوا جماعة عاملة اختلفت احوالهم النفسية الاجتماعية مع احوالهم النفسية الفردية اختلافا عظيما وان العقل لا يمنع من هذا الاختلاف لانه لا تأثير له فى الجماعات وان الذى يؤثر فيها انما هو المشاعر الغريزية

ومن العوامل الاصلية ما يسهل معه تمييز الجماعات المختلفة العناصر تمييزاً تاماً وهو الشعب وقد ذكرنا مراراً وقلنا انه اعظم المؤثرات التى تنبعث عنها افعال الناس ونقول ان له كذلك اثراً ظاهراً فى صفات الجماعات فالجماعة المؤلفة من افراد اياً كانوا وهم انكليز تختلف كثيراً مع الجماعة التى تتألف من افراد اياً كانوا وهم خليط من الروس والفرنساويين والاسبانيين مثلا

اشد مظاهر الافتراق الناشىء عن الوراثة العقلية فى كيفية الشعور والنظر فى الامور يعرض فجأة متى اجتمع افراد مختلفو الجنسية لسبب من الاسباب — وذلك نادر — كيفما اتحدت فى الظاهر المنافع التى اجتمعوا لاجلها . حاول الاشتراكيون عقد مؤتمرات تضم نواباً عن جميع العمال فى

كل امة فأدى ذلك دائما الى خلف عنيف . والجماعة اللاتينية تطلب على الدوام معاونة الحكومة على ما تريد تستوى في ذلك الجماعة الثورية الصرفة والجماعة المحافظة المحضة فهى تميل بطبعها الى حصر السلطة وجمعها فى يد واحدة والى من يجمع تلك السلطة فى يده . واما الجماعة الانكليزية او الامريكية فانها لا تعرف الحكومة ولا تستعين الا بهمة الافراد الذاتية . اول ما تهتم له الجماعة الفرنساوية المساواة . واول ما تهتم له الجماعة الانكليزية الحرية الشخصية . وبقدر اختلاف الشعوب تختلف المذاهب الاشتراكية والديمقراطية

وعليه تحكم روح الشعب دائما روح الجماعة فهى لها كالدائرة المنيعة التى تنظم تقلباتها وتحدد حركاتها . ومن هنا ينبغى ان نقرر القاعدة الآتية : تكون الصفات المنحطة فى الجماعة ضعيفة بقدر ماتكون روح الشعب قوية . فحالة الجماعة هى الهمجية وتسلطها رجوع الى الهمجية . ولا يخرج الشعب من الهمجيه ويتخلص من سلطة الجماعات التى لا يحكمها العقل الا اذا كانت له روح قوية شديدة . وذلك يتأتى بالتدريج

ويلى الجماعات المتقدمة الجماعات التى لا اسم لها كجماعات

الشوارع ثم الجماعات التي لها اسم تعرف به كجماعات العدول والمجالس النيابية والذي يوجب اختلاف هذين النوعين غالباً في انفعالهما هو ان الاولى لا تشعر بتبعة ما نتج عن اعمالها بخلاف الثانية فانها تقدر تبعة عملها كما ينبغي

القسم الثاني

الجماعات المؤتلفة العناصر

تفترق الجماعات المؤتلفة العناصر الى افناء وطوائف وطبقات فالافناء اول المراتب وهي تتألف من افراد مختلفين في التربية والحرفة والبيئة احياناً ولا جامعة تجمعهم الا وحدة الاعتقاد ومن هذا النوع الافناء السياسية والافناء الدينية

والطوائف ارقاها وهي تتألف من افراد متحدين في الحرفة فهم متشابهون في التربية والبيئة كجماعة الجند وجماعة الرؤساء الروحانيين

والطبقات هي التي افرادها من مناشئ مختلفة اجتمعوا لا بجامعة الاعتقاد كالافناء ولا بجامعة وحدة الحرفة كالطوائف بل بجامعة المنافع والشبه في حالة المعيشة والتربية كطبقة الاواسط في الامة وطبقة الزراع وهكذا

ولما كان بحثى فى هذا الكتاب قاصراً على الجماعات المختلفة العناصر ومن نيتى ان افرد للكلام على الجماعات المؤتلفة العناصر كتاباً خاصاً فلا اطيل فى بيان صفات هذه الاخيرة واختم الكلام على الاولى بذكر بعض انواعها مثالا للبقية

الفصل الثانى

الجماعات الجارمة

يجوز ان تكون الجماعة جارمة شرعاً لكنها لا تعد كذلك فلسفيا ـ فى ان افعال الجماعة لاشعورية محضة ـ امثلة نتى ـ روح جماعة شهر ستمبر ـ افكارها وشعورها وقسوتها واخلاقها

—

بعد ان يمضى زمن على الجماعة وهى فى هياج تعتورها حالة هبوط تجعلها آلة صماء غير شاعرة يحركها الالقاء فى نفسها ولذلك يتعذر تأثيمها فلسفياً كيفما كان الحال وانما جريت فى الكلام على استعمال هذا الوصف غير الصحيح لانى اقرأه فى بعض كتب علماء النفس الحديثة نعم ان بعض اعمال الجماعات تعتبر جرائم من حيث هى لكن كما يعتبر عمل النمر الذى يلتهم الهندى بعد ان يكون قد تركه لصغاره يفرحون بتمزيقه

تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوى .

ويعتقد الذين ارتكبوها من افرادها انهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم وهذا ليس شأن الجناة فى الاحوال الاعتيادية وتاريخ جرائم الجماعات يوضح ذلك باجلى بيان

فمن امثلة ذلك قتل موسيو (لونى) مدير سجن (الباستيل) وواقعة الحال انه بعد استيلاء الثائرين على هذا الحصن احاطت الجماعة الثائرة بالمدير المشار اليه وصارت الضربات تتساقط عليه من كل جانب . وهذا يشير بشنقه وذاك بضرب عنقه وثالث بربطه فى ذيل فرس وهكذا . وبينما هو يدافع عن نفسه فرطت منه رفسة اصابت واحداً من الجماعة . اذ ذاك اقترح احدهم ان يقطع المضروب رأس الضارب فهلل الجمع بالموافقة قال راوى الواقعة « وكان المضروب طباخا خالياً من العمل ويقرب من ان يكون بهلولا ذهب الى (الباستيل) لينظر ماذا يجرى هناك . فلما سمع الاجماع ظن ان الفعل مما تقضى به الوطنية . وانه ينال وساما اذا أعدم ذلك الوحش . ثم ناولوه سيفا ضرب به عنق المدير وكان غير مشحوذ فلم يقطع فالقاه واخرج من جيبه سكيناً صغيرة ذات مقبض اسود واستعان بخبرته فى تقطيع اللحوم فساعده الحظ واتم عمله »

ومن هذا المثال يظهر لك كيف تصدر افعال الجماعه فقد انقادت هنا الى تحريض قوى بالاجماع عليه واعتقد القاتل انه اتى عملا شريفاً اعتقاداً مكنه من نفسه ذلك الاجماع . وقد يكون مثل هذا العمل آثماً بحكم القانون لكنه ليس كذلك فى حكم علم النفس

أما الصفات العامة للجماعات الجارمة فهى بعينها الصفات التى شاهدناها فى غيرها . من قابلية التأثر . والتصديق . والتقلب والتطرف فى المشاعر طيبة كانت او رديئة . والتخلق ببعض الاخلاق الخاصة وغير ذلك

وستظهر لنا هذه الصفات كلها فى احدى الجماعات التى تركت فى تاريخنا اقبح ذكرى محزنة وهى جماعة شهر سبتمبر (١) وبين هذه الجماعة وجماعة (سانت بارثلمى) شبه عظيم . وانى انقل شرح الواقعة عن موسيو (تاين) فهو الذى

---

(١) هى كارثة شهيرة وقعت أيام الثورة الفرنساوية في باريس يوم ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ بتحريض رجل يقال له (مارات) على الارجح اصله طبيب انقلب صحافياً دموياً صرفاً فكان يطلب اعدام مائتين وسبعين الف نفس مدعياً ان فى ذلك فداء الوطن

استخلصها من المفكرات التى كتبت ايام حدوثها

لا نعرف بالتحقيق الآمر والمحرض على تخلية السجون بقتل من فيها وسواء كان هو (دانتون) كما هو المظنون او غيره [1] فالذى يهمنا هو انه وجد تحريض قوى تأثرت به الجماعة التى وليت المقتلة

كانت تلك الجماعة مؤلفة من نحو ثلاثمائة سفاك كلهم اشتات فهى تمثل الجماعة المختلفة العناصر اكبر تمثيل اذ لم يكن فيها من الغوغاء الا نفر يسير والباقون من اصحاب الحوانيت والصناع فى كل حرفة وكل مهنة من حذائين وقفالين وحلاقين وبنائين ومستخدمين وسماسرة وغيرهم كلهم متأثرون بالتحريض الذى وقع عليهم . كالطاهى الذى مرَّ ذكره . وكلهم يعتقد انه قائم بواجب وطنى . وقد قاموا بعملين . فكانوا قضاة وجلادين . ولكنهم لم يروا انفسهم من الجناة ابداً . بل وقر فى نفوسهم انه واجب من اكبر الواجبات . واول ما بدأوا به ان شكلوا محكمة . هنالك ظهرت بساطة روح الجماعات وبساطة عدالتها . ذلك ان المحكمة رأت عدد المتهمين كبيراً

(١) هو (مارات) على ما ذكر فى معاجم التاريخ كما تقدم

فقررت اولا قتل الشرفاء والقسوس والضباط وخدام الملك وبالجملة قتل جميع الذين يعتبرون فى نظر كل وطنى جناة بمقتضى صناعتهم . وان يكون القتل جملة من دون احتياج الى حكم خاص . واما الباقون فيحكم عليهم بناء على سمعتهم او شهرتهم . فلما اطمأنت نفوس الجماعة بهذا القرار انطلقت تنفذ ما حكم به القضاء فبرزت كوامن القسوة والتوحش اللذين شرحناهما من قبل . والتوحش يزداد فظاعة وعنفاً فى المجامع . الا ان الغرائز الهمجية لا تمنع من ظهور مشاعر تناقضها كما هو الشأن فى الجماعات . ولذلك كان يوجد فى تلك الجماعة من عاطفة التأثر ما يبلغ فى شدته تلك القسوة الهائلة .

كان لاولئك القتالين عطف صناع باريس ولطف شعورهم من ذلك ان احدهم علم ان المسجونين لم يذوقوا الماء منذ ست وعشرين ساعة فشرع فى قتل السجان لو لا شفاعة السجناء وكانوا اذا برأت المحكمة التى اقاموها واحدا من المهتمين فرحوا وهللوا وانهالوا عليه يقبلونه وصفقوا تصفيقا طويلا ثم انقلبوا يقتلون غيره اكداساً . كانوا يقتلون والسرور

لا يفارق محياهم . يغنون ويرقصون . ويعدون المقاعد للنساء لتشاهد وهى فرحة قتل الشرفاء . وكان لهم عدل من نوع خاص يدلك عليه أن أحد الموكلين بالتقتيل شكا من ان النساء لا يشاهدن القتل لبعدهن عن مكانه . وان القليل من الناس هو الذى ينال حظ ضرب الشرفاء . فصوب الجميع شكواه وقرروا ان يمشى المتهمون الهوينا بين صفين من القتالين . وأمروا هؤلاء ان لا يضربوهم الا بظاهر السيوف حتى يطول امد العذاب . وكان فريق يأتى بالمتهمين عراة كما ولدتهم الامهات ثم يمزقون اجسامهم مدى نصف ساعة كاملة فاذا تمت للجميع مشاهدة هذا المنظر أجهزوا على المعذبين فبقروا بطونهم

ومع ذلك كنت تشاهد الامانة لا تزال ملازمة للقاتلين فكانوا يظهرون من الفضائل ما ذكرناه للجماعات من قبل ويأبون ان يتناولوا شيئاً من نقود المقتولين وحليهم بل يقدمونها للجنة

وكانت بساطة التعقل التى انفردت بها روح الجماعات تظهر فى افعالهم . من ذلك انهم لما فرغوا من قتل الالف والمائتين

او الالف وخمسمائة العدو للأمة لاحظ بعضهم ان السجون الاخر تضم اناساً لا فائدة منهم وان الاولى اعدامهم . فسارعت الجماعة الى الموافقة على هذا الرأى . وكان من فى السجون الاخر اناساً من الشحاذين والهمل (المتشردين) والاولاد فرأت الجماعة انه لا بد من وجود اعداء للامة بينهم كامرأة رجل كان قد قتل نفساً بالسم اذ قال بعضهم « لا بد انها متغيظة من وجودها فى السجن . ولو تمكنت لوضعت النار في باريس ولا بد ان تكون قد قالت ذلك . بل قالته . اذن حق عليها الاعدام » سرى هذا القول فى النفوس كالحجة الناصعة . وهرولت الجماعة فقتلت كل من كان فى تلك السجون وبينهم نحو خمسين غلاما ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة . وقالوا فى قتلهم أنهم اذا عاشوا لا يبعد ان يصيروا من أعداء الامة فالواجب التخلص من شرهم

ولما اتم القاتلون عملهم بعد ان زاولوه مدة اسبوع كامل فكروا فى الراحة واعتقدوا انهم خدموا الوطن خدمة يستحقون الجزاء من اجلها . ورغبوا الى حكومة ذلك الزمن ان تكافئهم ومنهم من طلب وساماً

وفى تاريخ ثورة ١٨٧١ امثلة كثيرة كالتى قدمناها وسنرى كثيراً غيرها ما دام سلطان الجماعات ينمو ويعظم وسلطان الحكومة ينزوى ويضعف

الفصل الثالث

العدول المحلفون امام محاكم الجنايات

—

الصفات العامة للعدول ـ فى ان الاحصاء يدل على انه لا تلازم بين قراراتهم وكيفية تشكيلهم ـ كيف يتأثر العـدول ـ ضعف تأثير الدليل العقلى ـ طريقة الاقناع التى استعملها اشهر المحامين ـ الجرائم التى يرأف العدول بمن ارتكبها او التى يقسون من أجلها ـ فائدة العدول وخطر تبديلهم بالقضاة

—

لما كان لا يتيسر لنا ذكر جميع انواع العدول فى هـذا الـكتاب رأينا ان نقتصر على اهمها وهم العدول المحلفون امام محاكم الجنايات وهم احسن مثال يمثل به للجماعات المختلفة العناصر التى لها اسم خاص . واذا بحثنا عن الصفات التى لها نجد قابلية التأثر . وسيادة المشاعر الغريزية . وضعف التأثر بالمعقول . والانصياع الى القواد . وهكذا . وسنبين اثناء بحثنا

فى هذه الجماعات بعض الغلطات التى يرتكبها من لم يكن خبيرا بعلم روح الجماعات لما فى ذلك من الفائدة

نجد اولا فى العدول المحلفين من حيث القرارات التى يصدرونها مثالا حسنا يبين أن تأثير الاذكياء الذين يوجدون فى جماعتهم ضعيف لما تقدم من انه لا تأثير للعقل المستنير فى رأى الجماعة اذا كان فى موضوع غير فنى . وان رأى جمع من العلماء واهل الفن فى موضوع عام خارج عن علومهم وفنونهم لا يختلف كثيراً مع رأى جمع من البنائين او البدالين فى ذلك الموضوع . كانت الحكومة قبل سنة ١٨٤٨ تعتنى فى كثير من الاوقات بانتقاء العدول من المستنيرين . فتختارهم من بين المدرسين والموظفين ورجال الادب وامثالهم وهم الآن ينتخبون خصوصاً من صغار الباعة وصغار المحترفين والمستخدمين . وقد اندهش الكتاب الاختصاصيون اذ دل الاحصاء على تشابه القرارات وان اختلف تشكيل جماعة العدول . وأقر القضاة انفسهم بهذه الحقيقة مع كونهم من اعداء هذا النظام واليك ما كتبه موسيو (بيراردى جلاجر) أحد رؤساء محاكم الجنايات فى مفكراته «اصبح الآن اختيار العدول فى يد نواب

المجالس البلدية وهم يرفضون هذا ويقبلون ذاك على حسب أميالهم السياسية واحوال الانتخابات . وصارت اغلبية العدول من تجار اقل درجة ممن كانوا ينتخبونه قبل الآن ومن مستخدمي بعض المصالح . ومع هذا لم تتغير روح العدول ولا تزال قراراتهم كما كانت عليه لان جميع الافكار تمتزج بجميع المهن في وظيفة القضاء ولان كثيراً من المنتخبين يجتهدون اجتهاد المؤمن الحديث في الايمان . ولان الطبقة الدنيا لا تخلو من اهل المروآت »

والذي يهمنا من هذا القول هو النتيجة لصحتها لا المقدمات لضعفها . ولا غرابة في هذا الضعف لان المحامين والقضاة لا يعرفون في الغالب روح الجماعات ومنها العدول . والدليل على ذلك ماذكره الرئيس المشار اليه من أن (لاشو) وهو من اشهر المحامين أمام محاكم الجنايات كان لا ينفك عن اختصام جميع العدول المستنيرين . وقد برهنت التجارب . وما كان لغيرها ان يقيم هذا البرهان . على ان ذلك العمل كان عقيما حتى ان النيابة والمحاماة تركتا هذه العادة في باريس . ولم تتغير القرارات كما أشار اليه موسيو « جلاجو » فلا هي احسن مما كانت

عليه ولا هى اردأ منه

العدول كغيرهم من الجماعات يتأثرون بالمشاعر كثيراً ولا يتأثرون بالمعقول الا قليلا فهم كما قال احد المحامين « لا يثبتون امام امرأة ترضع طفلها او امام صغار يتامى اذا نظروا اليهم »

قال موسيو (جلاجو) : ويكفى ان تكون المرأة ظريفة لتنال عطف العدول

العدول قساة القلوب على من يرتكب الجرائم التى يخشون هم منها . وهذه الجرائم هى التى تهم الهيئة الاجتماعية ـ ورحماء بمرتكبي الجرائم التى مصدرها الغيرة والحب وهكذا .

فقلما يقسون على البنات الامهات اللاتى يقتلن مواليدهن ولا على البنت يخدعها الخادع ويهجرها فترميه بماء النار . وذلك لان العدول يشعرون انه لا خطر من مثل هذه الجرائم على الهيئة الاجتماعية وأنه ما دام القانون لا يحمى البنت التى هجرها من خدعها يكون نفع جنايتها اكبر من ضررها لان فى ذلك للخداع مزدجراً (١)

---

(١) مما تجب ملاحظته ان هذا الفرق التى جاء بها العدول لا عن قصد بين الجرائم المضرة بالهيئة والتى لا تكاد تضرها لا

والعدول كبقية الجماعات يبهرها النفوذ . لاحظ الرئيس (جلاجو) انهم ديموقراطيون فى جمعهم شرفاء فى عواطفهم فالاسم . والحسب . والثروة الطائلة . والشهرة والاستعانة . بمحام ذائع الصيت . وكل شيء يتفرد به الرجل ويظهر به كل ذلك عدة كبيرة وسلاح قوى فى يد المتهمين

اراد بعضهم بيان الطريقة التى ينبغى استعمالها فى هذا المقام فوصف احد محامى الانجليز وكان ذا شهرة فائقة بنجاحه امام محاكم الجنايات ومما قاله :

أول ما يجب على المحامى اللبيب الاهتمام به تعمد التأثير على شعور

يخلو من صواب اذ يجب ان يكون الغرض من القوانين الجنائية حماية الهيئة من المجرمين المضرين بها لا الانتقام لها مطلقا . غير ان الغالب على واضعى قوانيننا وعلى قضاتنا هى فكرة الانتقام التى كانت سائدة فى زمن الشرائع القديمة . ودليلنا على هذا الميل فى قضاتنا ان الكثير منهم لا يزال يأبى العمل بقانون (بيرانجيه) الذى يبيح ايقاف التنفيذ فلا يقضى المحكوم عليه عقوبته الا اذا عاد فأجرم مع ان جميع القضاة يعلمون جيدا ان تنفيذ العقوبة الاولى يجر حتما الى العود كما يؤيد ذلك الاحصاء . (لعل ذلك مبالغ فيه م) وكانى بالقضاة يعتقدون انهم اذا افلتوا محكوما عليه لايكونون قد انتقموا للامة فهم يفضلون خلق مجرم يتعود الاجرام على عدم الانتقام

العدول . والاقلال من التقرير والاستدلال او اختيار السهل البسيط من الادلة العادية كما هو الشان مع بقية الجماعات (كان يترافع وهو يرقب حركات العدول وتحين مناسبة الوقت فكان يقرأ فى وجوههم اثر كل جملة وكل كلمة بما أوتى من الفراسة والتجارب ليعرف ما ينبغى بعد ذلك وكان يتفرس اولا العدول الذين صاروا من جانبه ويخطو معهم فى خطابه الخطوة الاخيرة التى تمكنه من انحيازهم اليه ثم يلتفت لمن يشعر منه الانحراف عنه ويجتهد فى استكناه سبب ميله عن المتهم . وهذا ادق مافى عمل المحامى . لان الاسباب التى تبعث الرغبة فى الحكم على رجل بالعقوبة كثيرة بقطع النظر عن كون الحكم عدلا ام ظلما)

ولقد تلخص فن الخطابة فى هذه الاسطر على قلتها وبان ان السبب فى عدم تأثير ما حضر منها من قبل هو اضطرار الخطيب الى تغيير الكلام طبقاً لأثره فى نفوس السامعين

وليس من الضرورى ان يكسب الخطيب ميل جميع العدول . بل يكفيه اكتساب قلوب الرؤساء الذين هم قادة البقية وبهم يتكون رأى الاغلبية . فالذى يقود العدول انما

هم نفر قليل منهم كما يقع ذلك فى كل الجماعات . قال المحامى الذى مر ذكره « عرفت بالتجربة انه متى حان وقت اصدار القرار يكفى واحد أواثنان من أهل العزيمة فى الرأى لاقناع البقية »

فالواجب اذن اقناع هذين الاثنين او الثلاثة . باستعمال الحذق فيما يلقى فى نفوسهم . واول ما ينبغى فعله هو الاجتهاد فى اعجابهم لان الرجل فى الجماعة اذا اعجبه المتكلم صار قريب الاقتناع . وقبل بالسهولة الادلة التى تعرض عليه كيفما كانت فقد قرأت فى بعض الكتب عن موسيو (لاشو) الحكاية الآتية (من المعروف عنه أنه كان فى مرافعاته امام محكمة الجنايات لا يفتر عن ملاحظة العدلين او الثلاثة الذين كان يتفرس فيهم انهم اصعب مراساً من البقية وانهم اهل النفوذ فيهم . وكان يتمكن غالباً من التغلب عليهم واتفق له مرة فى الريف انه لحظ بين العدول واحداً استعمل لاقناعه اشد وسائل الخطابة ثلاثة ارباع الساعة على غير جدوى . وكان جالساً فى أول الصف الثانى وهو السابع حتى كاد اليأس يدرك الخطيب وبينما لاشو مندفع فى البيان والبلاغة تتدفق

من فيه اذا به قطع الكلام فجأة والتفت الى رئيس المحكمة قائلا « سيدى الرئيس اتسمحون فتأمرون باسدال الستار الذى امامنا فان الشمس تخدش عينى حضرة العدل السابع » فاحمر وجه العدل السابع وتبسم وشكر وقد صار من صف الدفاع)

قام فى هذه الايام كثير من الكتاب ومنهم الفطاحل وشددوا النكير على نظام العدول مع ان وجودهم هو الضمان الوحيد الذى يقينا شر الخطأ الكثير الوقوع من طائفة لا رقيب عليها (١) ومنهم من يذهب الى وجوب حصر اختيار العدول فى طبقة المستنيرين ولكنا

---

(١) المحاكم عندنا هى المصلحة الوحيدة التى تكاد تكون لا مراقبة على اعمالها ومعما اتته الامة الفرنساوية من الثورات لا يوجد فيها حتى الان قانون مثل قانون (الافراج) الذى تفتخر به الامة الانكليزية . نحن قد نفينا جميع الظالمين . ولكنا اقمنا فى كل مدينة قاضيا يتصرف فى شرف اهل الوطن وحريتهم كما يشاء . قويفى تحقيق خرج حديثاً من مدرسة الحقوق وله القدرة المنفردة على سجن أعلى الوطنيين منزلة كما يريد لمجرد الشبهة منه فى اجرامهم . وليس من يحاسبه على عمله . وله القدرة على ابقائهم فى سجنهم ستة اشهر بل سنة

اقنا الدليل على ان قراراتهم فى هذه الحالة لن تختلف مع التى تصدر الآن . ومنهم من يتذرع بالخطأ الذى يقع من العدول فيذهب الى تبديلهم بالقضاة . ونحن لا ندرى كيف غاب عنهم ان ذلك الخطأ الذى بالغوا فى نسبته الى العدول انما سبقهم به القضاة . لان المتهم لا يمثل بين يدى اولئك الا بعد اعتباره جانيا من كثير من هؤلاء . من قاضى التحقيق ورئيس النيابة ودائرة الاتهام . الا يرى انه لو سلم الحكم النهائى عليه الى القضاة بدل العدول فاتته الفرصة الوحيدة للوصول الى اظهار برأته . ان يخطىء العدول فقد اخطأ القضاة من قبلهم . فالوزر على هؤلاء وحدهم فى كل خطأ قضائى مفزع كالحكم الذى صدر أخيراً على الطبيب (فلان) اذ اضطهده احد قضاة التحقيق المعروف بقصر العقل لان

بحجة التحقيق ثم يخلى سبيلهم ولا ضمان لهم عليه ولا يكلف لهم باعتذار يفعل ذلك بمقتضى (امر القبض) وهو مساو (لخطاب السجن) الذى عرفه اباؤنا الاولون غير ان هذا الاخير كان لا يجوز استعماله الا للعظماء من الاكابر وأما الاول فهو اليوم فى يد طبقة من الوطنيين هم بعيدون جداً عن ان يكونوا الاكثر تهذيباً والاكبر استقلالا

شابة تكاد تكون من البله اتهمته بأنه اسقط حملها مقابل جعل قدره ثلاثون فرنكا . ولولا ثورة الرأى العام وصدور العفو عنه لذلك عقب الحكم عليه لارسل الى سجن الاشغال الشاقة . ظهر فى هذه الحادثة ان خطأ الحكم كان فاحشاً بمقدار اجماع الناس على وضوح براءة المحكوم عليه . وكان القضاة انفسهم مقتنعين بذلك لكن تحزبهم لطائفتهم دفعهم الى استنفاد كل وسيلة ليمنعوا العفو عن ذلك البرئ . والحاصل انه متى كانت الدعوى ذات احوال خصوصية فنية لا يدركها العدول ترى هؤلاء مضطرين الى الاخذ بأقوال النيابة العمومية لاعتقادهم ان الذى حقق التهمة قضاة لهم خبرة تامة بمثل هذه المسائل . وليت شعرى من يكون المخطئ الحقيق حينئذ آلعدول أم القضاة . يجب ان نحرص على العدول حرصنا على النفيس فربما كانوا هم الجماعة التى لا يمكن ان يقوم الفرد مقامها . وهم الذين يتيسر لهم وحدهم ان يخففوا من شدة القانون . فهو بمقتضى كونه واحداً لجميع الناس اعمى يضع القواعد مطلقة ولا يعرف الشواذ . اما القضاة فلا تدخل الشفقة عليهم من باب . ولا يعرفون الا النص . وهم قساة

بمقتضى صناعتهم . فلا يفرقون فى الحكم بين وغد ثقيل النفس المجرمة وفتاة هجرها من غواها وعضها الفقر فوارت مولودها . لكن العدول يشعرون بفطرتهم ان تلك الفتاة التى خدعت اقل اجراما من الذى خدعها ولا سلطان للقانون عليه . وانها جديرة بكل عطف وحنان

لقد عرفت حقيقة روح الطوائف كما عرفت روح الجماعات الأخرى . ولكنى لم اوفق الى معرفة حالة اكون متهماً فيها بجرم وافضل القضاة على العدول ليحكموا فيها . لان لى بعض الامل فى البراءة امام هؤلاء والامل ضعيف امام اولئك . حذار من سطوة الجماعات وحذار ثم حذار من سطوة بعض الطوائف فقد تلين الاولى ولكن الثانية لا تلين ابداً

الفصل الرابع

جماعات الانتخاب

—

الصفات العامة لجماعات الانتخاب ـ طريقة اقناعها ـ الصفات التى يجب ان تكون للمترشح ـ ضرورة النفوذ ـ السبب فى ان العملة والصناع قلما ينتخبون النائب من بينهم ـ سلطان الالفاظ والجمل على الناخب ـ صورة المناقشات الانتخابية ـ كيف يتكون رأى الناخب ـ سلطان اللجان ـ في انها تمثل اشد صور الاستبداد ـ لجان الثورة الفرنساوية ـ من المتعسر الاستعاضة عن الاقتراع العام كيفما كانت قيمته ضعيفة . فى بيان ان النتيجة تكون هى بذاتها اذا قصر حق الانتخاب على فريق من الاهلين ـ فى معنى الاقتراع العام عند كل امة

—

من الجماعات المختلفة العناصر جماعات الانتخاب اعنى

المجامع التى تنتخب القائمين ببعض وظائف معينة ولما كان عملها محصوراً فى دائرة محدودة وهو اختيار واحد من بين افراد معينين لا يظهر فيها الا بعض الصفات التى تقدم بيانها. فالذى يشاهد عندها ضعف القدرة على التعقل . وفقدان ملكة النقد. وسرعة الغضب. والتصديق. والسذاجة .ويرى فى قرارتها أثر القواد وأثر العوامل التى مرّ ذكرها . اى التوكيد . والتكرار . والنفوذ . والعدوى

فلنبحث فى طريقة اقناعها لانا اذا عرفنا انجع الوسائل فى ذلك وضحت لنا روحها تمام الوضوح

اول صفة يجب ان تكون للمترشح هى النفوذ . ولا يقوم مقام النفوذ الذاتى اذا فقد الا النفوذ المكتسب من الثروة . حتى ان الذكاء الفائق بل النبوغ ليسا من الوسائل التى تؤدى الى النجاح كثيراً فى هذا الباب

ولا غنى للمترشح عن النفوذ لانه المدة الكبرى التى تمكنه من التسلط على النفوس بدون ان يتناظر فيه والسبب فى كون العملة والصناع لا ينتخبون من ينوب عنهم من صفوفهم هو انه لا نفوذ عندهم لمن خرج من بينهم واذا

اختاروا فى النادر واحداً من طبقتهم فانما ذلك لكى يضربوا به أحد العظماء كمعلم كبير الشأن ممن لهم سطوة على الناخب دائماً فينزع هذا الى مخالفته متخيلا انه يصير بذلك سيداً عليه لحظة من الزمان

الا ان النفوذ وحده لا يضمن النجاح لصاحبه فى الانتخاب لان الناخب يجب ان يتملق ويمنى بنيل ما يصبو اليه من الرغبات فينبغى ان يساق اليه من التملق ما يعجزه حمله وان لا يحجم عن التكفل له بما يخرج عن حد المعقول من الوعود والامانى . فان كان عاملا فكل ذم فى معلمه قليل . اما المترشح المزاحم فانه يجب ان يدخل اليه من طريق التوكيد والتكرار والعدوى لاثبات انه أخس الناس وانه مجرم أثام . ومن البديهى انه لا محل لاقامة دليل ما على ذلك . فان كان الخصم لا يعرف روح الجماعات مال الى تبرئة نفسه بالحجة والبرهان بدل ان يقابل التوكيد بالتوكيد ومن ثم يفقد كل أمل فى النجاح

أما البرنامج الذى يحرره المترشح ببيان ما ينوى من الاعمال فينبغى ان لا يكون صريحاً حتى لا يتخذه خصومه

حجة عليه . لكن يجب ان يطيل في البرنامج الشفهى ما استطاع ولا خوف عليه من الوعد باجراء اعظم الاصلاحات فان ذلك يؤثر حالا فى نفوس الناخبين وهو فى حل منه آجلا اذ القاعدة المطردة ان الناخب لا يبحث ابداً فى هل المنتخب جرى طبقاً لتصريحاته التى كانت السبب فى انتخابه

ومن هنا يتبين ان جميع عوامل الاقناع التى تقدم ذكرها هى فى جماعات الانتخاب . بقى علينا ان نذكر الالفاظ والجمل مما بينا تأثيره السحرى فى النفوس . الخطيب الذى يعرف كيف يتصرف بها يمكنه ان يوجه الجماعة حيث يشاء . فلمثل (رأس المال الدنس) و (اولئك المحتالين الادنياء) و (العامل الجليل) و (جعل الاموال شائعة بين الجميع) وهكذا . لمثل هذه الالفاظ تأثير لا يزال كبيراً وان كان الناس قد صاروا يمجونها . فاذا كان المنتخب ممن أسعدهم الحظ ووفق لايجاد صنعة جديدة خالية من المعنى المحدود لتصيب بذلك اهواء النفوس المختلفة كان نجاحه باهراً وفوزه محتما . والذى أوقد نار الثورة الدموية فى اسبانيا سنة

١٨٧٣ انما هو لفظ من تلك الالفاظ السحرية ذات المعانى المضطربة التى يفهم منها كل واحد حسب ما يشتهى . ولقد يحسن بنا ايراد كيف كان ذلك نقلا عن أحد كتاب ذاك الحين قال « ظن المتطرفون ان الجمهورية الجامعة للسلطة عبارة عن ملوكية خفية فارضاهم مجلس الامة وقرر بالاجماع أن تكون الجمهوريه اتحادية من غير أن يعرف أحدهم معنى ما أقر عليه . لان الصنيعة كانت قد أخذت بلب الناس أجمعين فسكروا بخمرتها . وغالوا فى طلاوتها وقالوا لقد قامت فى الارض مملكة الفضيلة والسعادة» .وكان الجمهور يرى من المسبة العظيمة ان خصمه لا يعترف له بنعت (الاتحادى) .وكان بعض الناس يسلم على بعض بقوله (سلام على الجمهورى الاتحادى) . أما المعنى الذى كان يحضرهم من هذه التسمية فمنهم من كان يذهب الى انه عبارة عن اطلاق الاقاليم من كل قيد ليحكموا أنفسهم باستقلال . ومنهم من كان يظن ان النظام الجديد يشبه نظام الولايات المتحدة فى امريكا . واخرون يرون انه توزيع السلطة وتجزئة طريقة الحكم فى البلاد . والبعض كان يفهم ان كل سلطة قد بادت وان الوقت حان لتصفية حساب

الهيئة الاجتماعية . ونادى الاشتراكيون فى برشلونه وفى الاندلس باستقلال كل قرية بنفسها . وذهبوا الى وجوب انتخاب عشرة آلاف نائب عن جميع البلاد الاسبانية كلهم احرار لا يحكمهم غير انفسهم . وقالوا بالغاء الجيش والشرطة ولم يمض الاّ قليل حتى أخذت الثورة تمتد فى الاقاليم الجنوبية من مدينة الى مدينة ومن قرية الى أخرى . فكانت كل بلدة فرغت من اعلان استقلالها تعمد الى تخريب الاسلاك البرقيه والسكك الحديدية لتقطع المواصلة بينها وجيرانها ومدريد ولم تبق نزلة حقيرة الا نزعت الى الاستقلال بنفسها . وحل محل الاتحاد تمزق فى الاقاليم علاماته التوحش والنار والدماء فأقيمت المذابح فى كل صقع وناد

اما تأثير المعقول فى جماعات الانتخاب فلا يجهل ضعفه الاّ الذين لم يطلعوا مرة على ما يجرى فى اجتماعات الانتخابات لانها لا تحتوى على شيء غير تناول التوكيدات المتناقضة . والشتائم والمخازى . ولكنها مجردة عن كل حجة وبرهان . واذا اتفق وساد السكون لحظة فذلك لان احد الحاضرين ممن لا يقتنعون بالسهولة خرج وسط الجمع ليلقى على المترشح

سؤالا يعجزه الجواب عنه . وذلك يلذ دائما للسامعين . الا ان هذه اللذة لا تدوم طويلا لان صوت السائل لا يلبث ان يغيب فى صخب المعارضين وانى ناقل للقراء عن الجرائد اليومية شيئا مما يجرى فى الاجتماعات العمومية ليكون مثلا على ما تقدم . (اقام بعضهم اجتماعاً وطلب من الحاضرين انتخاب الرئيس فقامت القيامة واسرع الفوضويون الى محل اللجنة ليستولوا عليه ووقف فى وجههم الاشترا كيون فتلا كم الفريقان وانهالت الشتائم من مشاء . وبائع ذمته . وهكذا . وخرج احد الحاضرين وعينه مورمة . وانتهى الحال ببقاء اللجنة فى مكانها وسط الهياج والاصطخاب . وتمت الرئاسة للوطنى فلان . واخذ الاشترا كيون يقطعون عليه الكلام وهو يحمل عليهم حملة منكرة . فقابلوه بالوغد . قاطع الطريق . الدنيء وهكذا من النعوت . فقابل الخطيب ذلك بنظرية مقتضاها ان الاشترا كيين من البله او النصابين)

وهذا مثل آخر (نظم الحزب المنحاز لالمانيا مساء امس فى قاعة التجارة بشارع كذا اجتماعاً كبيراً استعداداً لعيد عمال اول شهر مايو . وتقرر ان يكون الهدوء سائداً والسكون

شاملا وقد طعن الوطنى فلان على الاشتراكيين بأنهم اوغاد نصابون . وعليه تشاتم الخطباء والحضار وانتقلوا من المشاتمة الى الملاكمة . فاشتركت الكراسى والموائد فى الخصام الخ)

ولا يحسبن القراء أن هذا النوع من الخطابة خاص بفريق من الناخبين وانه آت من درجتهم الاجتماعية بل تلك صورة تتصف بها المناظرة فى كل جمعية أياً كانت حتى التى تتألف من مستنيرين . وقد بينت ان الافراد فى الجماعات يتقاربون الى حد التساوى فى ملكات العقل . ونحن نجد الدليل على ذلك فى كل مكان . اليك مادار فى اجتماع كان الحاضرون فيه كلهم من الطلبة نقلا عن جريدة الطان الصادرة فى ١٣ فبراير سنة ١٨٩٥ « كلما اوغل الليل ازداد الهياج ولا أظن ان خطيباً واحداً لفظ جملتين من دون ان يقطع الكلام عليه . اذ الصراخ كان يعلو فى كل لحظة تارة هنا وتارة هناك وآونة من جميع الجهات هؤلاء يصفقون واولئك يصفرون وكانت المناقشات الشديدة تحتدم بين السامعين فترى العصى تهدد الرؤوس والضرب على الموائد كالنغمة .

والاصطخاب مقذوفاً الى المشوشين . هذا يقول اخرجوه . وذاك يصيح . الى منبر الخطابة ثم قام موسيو فلان وجعل يخاطب الحضور بقوله هذا اجتماع ما اشد قبحه وجبنه . هذا اجتماع وحشي . دنئ . رذيل . متعصب . ثم اعلن انه سيهدمه الخ)

هنا يرد على الخاطر كيف يتمكن الناخب من تكوين رأيه وسط هذه الضوضاء . غير ان هذا الخاطر يؤذن بأن صاحبه يجهل تمام الجهل مقدار الحرية التي توجد فى المجامع . وان اراء الجماعات انما تأتيها من طريق التسلط عليها لا من طريق الاقناع . والذى يكون الآراء ويجرى الانتخاب فى الحالة التي تبحث فيها هى اللجان . واللجان يقودها فى الغالب بائعو النبيذ لما لهم من السيطرة على العمال بواسطة تسامحهم معهم فى تأجيل ثمن ما يشربون . قال موسيو (شيرر) وهو من اكبر انصار الديموقراطية فى الوقت الحاضر « أتعرفون ماهى لجنة الانتخاب . انها عبارة عن مفتاح نظاماتنا وأهم قطعة من الآلة السياسية عندنا . ان الذى يحكم فرنسا الآن هى اللجان[1] »

---

(١) اللجان على اختلاف مسمياتها كالنوادى والشركات هى

لذلك ليس من الصعب جداً التسلط على اللجان اذا كان المترشح مقبولا وذا يسار يفي بما يحتاج اليه في مثل ذلك. فثلاثة ملايين فرنك كفت باعتراف المتبرعين انفسهم لانتخاب القائد (بولونجيه) في مقاطعات عدة

تلك روح جماعات الانتخاب مثلها مثل روح بقية الجماعات لا أحسن ولا اردأ

وعليه فاني لا أستخلص مما تقدم نتيجة ضد الانتخاب

اشد الجماعات خطراً من حيث المقدرة . فهي التي تمثل اعظم جمعية لا أثر للشخصية فيها . ولذلك كانت اقسى الجماعات يداً واكبرها تساطا فلا يشعر القواد الذين يتكلمون بلسان اللجان ان هناك تبعة ترجع اليهم . فهم يضربون في كل صوب آمنين . وما كان يخطر على بال اشد المستبدين عسفا ان يأمر بمثل ما امرت به اللجان الثورية التي فرقت شمل رجال (الاتفاق) وحصدتهم حصداً كما قال (باراس) . ظل (روبسبيير) قابضا على الحكم كله بيده طول الزمن الذي كان ينطق فيه باسم اللجان فلما اختلف معها بسبب التشدد في الرأي وانفصل عنها ادركته الداهية . اجل ان حكم الجماعات هو حكم اللجان اعني حكم القواد ولن يهتدي الانسان الى حكم اشد واقسى .

العام . ولو ان الامر بيدى لابقيته كما هو لاسباب عملية تنتزع من بحثنا فى روح الاجتماع . فلنذكرها

لا يسع أحداً انكار مضار الانتخاب العام لانها واضحة كالشمس . فلا يمارى فى ان المدنية عمل طائفة صغيرة من أهل العقول الراقية شبيهة بقمة هرم تتسع طبقاته كلما انحطت الدرجة العقلية . وتلك الطبقات تمثل الطبقات البعيدة للأمة. وعظمة المدنية لا تتوقف طبقاً على رأى العناصر الوضيعة التى ليس لها من القيمة الا كثرة العدد . ومن المحقق أيضاً ان اراء الجماعات خطرة فى غالب الاحيان فقد كلفتنا حتى الآن غارات كثيرة على بلادنا واذا تم لها ما تعده من فوز الاشتراكية فمن المظنون ان اهواء سيادة الامة تكلفنا أضعاف ذلك أيضاً

الاّ ان هذه المطاعن القوية نظراً تفقد قوتها تماماً من الجهة العملية اذا فكرنا فى قوة الاراء التى لا تغالب متى صارت عقيدة من العقائد وعقيدة سيادة الجماعات لا تختلف من الجهة النظرية مع العقائد الدينية التى وجدت فى القرون الوسطى من حيث الضعف فى كل غير ان ما كان لهذه من

القوة في ذلك الزمان هو للاولى في هذه الايام فهي منيعة حينئذ كما كانت افكارنا في تلك القرون . لنفرض ان رجلا من أهل الافكار الحرة اى المطلقة السراح وجد في القرون الوسطى أتظن انه كان يتحرك لمقاومة الافكار الدينية المتمكنة في القوم بعد ان يرى مالها من السيادة المطلقة . أو كان يفكر في انكار وجود الشيطان وحرمة يوم السبت اذا مثل امام قاض يريد احراقه بالنار بتهمة انه حازب الشيطان او ذهب الى المعبد يوم السبت . انه لا مناقشة مع الجماعات كما انه لا جدال مع العواصف . ولعقيدة الاقتراع العام في ايامنا من القوة ما كان للعقائد الدينية في ذلك الزمان . فترى الخطباء والكتاب يذكرونه مقروناً بالتجلة والاحترام مصحوباً بملق لم يعرفه لويز الرابع عشر . وجب اذن ان يسار معه كما يسار مع العقائد الدينيـة . وللزمان ان يفعل في الجميع فعله على انه لا فائدة من التحفز لزعزعة هذه العقيدة مع وجود ما يؤيدها في الظاهر . ولقد أصاب موسيو (توكفيل) حيث قال « ليس لاحد في زمن المساواة اعتقاد في أحد . لما بين الكل من التشابه . غير ان هذا التشابه يجعلهم يثقون

تمام الثقة بحكم الجمهور لانهم لا يتصورون ان الحقيقة لا تكون من جانب العدد الاكبر وفيه ذلك الجم الغفير من المستنيرين »

قد يذهب بعضهم الى ان حالة انتخابات الجماعات تتحسن بقصر حق الانتخاب على أهل الكفاآت . اما انا فلا أسلم بذلك لحظة واحدة للسبب الذى قدمته وهو انحطاط درجة الجماعات العقلية على اختلافها كيفما كان تركيبها . فان الناس يتساوون فى الجماعة دائماً . وليس رأى الاربعين عضواً الذين تتركب منهم جمعية المعارف فى مسألة عامة احسن من رأى اربعين سقاء . ولا اظن ان رأيا أقره الاقتراع العام وشدد النكير عليه من أجله كاعادة الامبراطورية كان يتغير لو ان المقترعين كانوا كلهم من أهل الادب والعلماء . لان الذى يجعل الرجل ذا بصر بالاحوال الاجتماعية ليس كونه يعرف اللغة اليونانية او الرياضيات او كونه معماريا او طبيباً بيطرياً او طبيباً او محاميا. انظر الى علماء الاقتصاد عندنا تر هم كلهم من المستنيرين واغلبهم مدرسون او اعضاء فى جمعية المعارف ومع ذلك لم يتحدوا على مسألة عامة ابداً كحماية

التجارة او توحيد معدن النقود وهكذا . ذلك لان علمهم ليس الاصورة مخففة من الجهل العام . وكل جهل يستوى امام المسائل الاجتماعية التى لا حصر للمجهول فيها

وعلى ذلك اذا قصرنا الانتخاب على قوم افعموا علماً لا نصل الى نتيجة احسن مما لو تركناه فى يد اهل زماننا لان اولئك العلماء يعملون على الاخص بحسب مشاعرهم ومنافع طائفتهم . فلا نكون قد ذللنا شيئا من العقبات التى امامنا بل نكون قد زدنا عليها بدخولنا تحت نير الاستبداد الذى تنفرد به الطوائف

نتيجة انتخاب الجماعات واحدة وهو انما يترجم عن الرغائب والحاجات التى للشعب بمقتضى فطرته سواء كان الانتخاب عاماًاو محصوراً فى طبقة او طبقات . فى جمهورية او ملوكية . فى فرنسا او فى البلجيك أو اليونان او البرتقال او اسبانيا . ومتوسط المنتخبين فى كل امة يمثل روح شعبها . وهو لا يكاد يتغير من جيل الى جيل

وهنا نجد مرة اخرى نظرية الشعب ذات الاهمية الكبرى وتلك النظرية الاخرى المشتقة منها وهى ضعف تأثير النظامات

والحكومات فى حياة الامم . هذه الامم انما تسيّر طبقاً لأرواح شعوبها . وبعبارة اخرى طبقاً لما ورثته عن ابائها وهو ما تمثله تلك الروح . فالشعب هو مستودع احتياجات كل يوم . وتلك الاحتياجات هى الملوك الخفية التى بيدها زمام مآلنا

الفصل الخامس

المجالس النيابية

—

أكثر الصفات العامة للجماعات المختلفة العناصر غير الاسمية توجد في الجماعات النيابية — بساطة الافكار — الانفعال وحدوده — الافكار الثابتة والافكار المتقلبة — السبب في ان التردد هو الغالب — شأن القواد — سبب نفوذهم — هم الذين لهم الكلمة في المجلس بحيث ان رأي الجميع يرجع الى رأي عدد محدود من الاعضاء — سلطان القواد الشامل — اركان خطابتهم — الالفاظ والصور — في ان الضرورة تقتضي ان يكون القواد متمتعين بما يلقون من الاراء وان يكونوا من قصار النظر — في انه يستحيل ان تقبل اراء الخطيب الذى لا نفوذ له — غلو مشاعر الهيئة سواء كانت طيبة أو رديئة — في انها تتحرك احياناً بحركة نفسية — في جلسات « المتعاهدين » — في الاحوال التي لا يكون للهيئة فيها صفة الجماعة — تأثير الاختصاصين

في المسائل الفنية — منافع النظام النيابي ومضاره في كل أمة ـ في ان النظام موافق لاحتياجات العصر ولكنه يؤدي الى تبذير الاموال وتحديد جميع الحريات شيئاً فشيئاً ـ خلاصة الكتاب

—

المجالس النيابية جماعات مختلفة العناصر غير اسمية . وهي تتشابه كثيراً في صفاتها وان اختلفت طريقة تكوينها بحسب الامم والازمان . ولروح الشعب فيها أثر هو اضعاف تلك الصفات او تقويتها . الا انه لا يمنع من ظهورها البتة . وتتشابه المجالس النيابية في البلاد المختلفة كاليونان وايتاليا والبرتقال واسبانيا وفرنسا وأمريكا من حيث المداولات والقرارات تشابها عظيما فتتشابه الصعوبات الناشئة عن ذلك امام جميع الحكومات

النظام النيابي هو اقصى ما تصبو اليه الامم المتحضرة في العصر الحاضر لانه يعبر عن فكر سائد في الناس وان كان علم النفس يراه خطأ وهو ان العدد الكثير أقدر من العدد القليل على البت في الامور بالعقل والروية والاستقلال

والصفات المميزة للجماعات توجد في المجالس النيابية

من بساطة الافكار . وسرعة الانفعال وقابلية التأثر برأى الغير . والغلو فى المشاعر ونفوذ القواد . الاّ ان لها بمقتضى تكوينها الخاص بعض صفات لا تشترك فيها مع بقية الجماعات واليك بيانها

اما بساطة الافكار فمن اهم مميزات المجالس النيابية فتشاهد عند جميع الاحزاب خصوصا عند الامم اللاتينية الميل الى حل المسائل الاجتماعية العويصة بابسط المبادئ النظرية وبقوانين عامة يطبقونها على جميع الاحوال . ومن الواضح ان المبادئ تختلف باختلاف الاحزاب . لكن الرجل فى الجماعة يرمى دائما الى تقدير تلك المبادئ باكثر من قيمتها ويذهب فيها الى آخر ما تؤدى اليه من النتائج . لذلك كانت الافكار التى تمثلها المجالس النيابية هى المتطرفة

واكمل مثال لبساطة المجالس النيابية جماعة (اليعاقبة) ايام ثورتنا الكبرى . فقد كانوا كلهم من ارباب المذاهب وكلهم من المناطقة . وكانت رؤوسهم ملأى بالكليات المقولة بالتشكيك . لذلك كان همهم تطبيق المبادئ المقررة من غير التفات لظروف الاحوال . فصح ما قيل عنهم من انهم عبروا

الثورة ولم يروها . فهم قوم اتخذوا مبادئهم مرشداً وظنوا انهم يتمكنون بها من خلق هيئة اجتماعية جديدة ويرجعون بالمدنية الراقية الى مدنية كانت للامة قبل تطورها الحالى . كذلك كانت الوسائل التى استعملوها فى تحقيق احلامهم من ابسط الوسائل . فاذا اعترضتهم عقبة استعملوا العنف فى تذليلها وكانت الروح السارية فيهم جميعاً واحدة وان كانوا فرقا شتى

واما التأثر بالرأى فقابلية المجالس النيابية له شديدة . والتأثير يأتى من قبل القواد ذوى النفوذ كما هو الشأن فى الجماعات كلها الاّ ان لقابلية المجالس النيابية فى هذا الباب حدودا واضحة يجب ذكرها .

فلكل عضو رأى ثابت فى المسائل المتعلقة باقليمه لا يمكن زحزحته عنه . ولا تؤثر فيه حجة او دليل . فلو بعث (ديموستين) ما امكنه ان يقنع عضوا بعدم وجوب حماية المهن التى لبعض اصحابها النفوذ الاول فى الانتخابات . ذلك لان التأثير الذى وقع عليه اولا من الناخبين اوجد له رأياً ثابتاً وعطل فيه ملكة الاقتناع بما يخالفه . ولعل احد نواب مجلس العموم الانكليزى ممن طال عهدهم فبه كان يشير الى تلك الافكار التى رسخت

من قبل فى ذهن كل عضو حتى صارت لا تقبل التغيير ولا التعديل لتأثير ضروريات الانتخاب حيث قال « سمعت مدى خمسين عاماً قضيتها فى (ويستمنستر) الافا من الخطب فالقليل منها حملنى على تغيير رأيي ولكن لم يكن لواحدة منها ان تحملنى على تغيير صوتى عند الاقتراع »

واذا دارت المناقشة فى مسألة عامة كاسقاط الوزارة او تقرير ضريبة جديدة وهكذا تقلبت الاراء وظهر نفوذ القواد . لكنه لا يساوى مالهم فى الجماعات الاعتيادية . اذ لكل حزب قواد قد يعادل نفوذهم نفوذ قواد الحزب الآخر . فيصبح الاعضاء بين مؤثرين متضادين ولذلك يترددون . فيقر الواحد منهم على أمر وبعد ربع ساعة يعمل بنقيضه كأن يقبل فى القانون نصا يهدم المبدأ الذى اقامه عليه مثال ذلك الاقرار على قانون يبيح لاصحاب المعامل حق اختيار العمال وطردهم . ثم الاقرار فى الجلسة ذاتها على تعديل يجعل هذا الحق أثرا بعد عين

وضح مما تقدم ان لكل مجلس فى كل دور افكاراً ثابتة واخرى غير ثابتة ولما كان الغالب فيما يعرض عليه هى المسائل العامة كان

التردد فى الاراء هو الغالب لما يجتمع فى نفس كل عضو من تأثير الناخبين وتأثير القواد فى المجالس

على ان القواد هم أصحاب الكلمة فى أغلب المسائل التى ليس للاعضاء فيها رأى ثابت من قبل . وضرورة أولئك القواد ظاهرة . لانهم يوجدون فى كل هيئة نيابية عند جميع الامم بعنوان رؤساء الفرق . أولئك الرؤساء هم السلاطين فى كل مجلس . لان الرجل فى الجماعة لا يستغنى عن السيد . ومن هنا كانت قرارات المجالس النيابية لاتمثل الاّ رأى عدد صغير من اعضائها

والقليل من تأثير القواد فى تلك المجالس راجع الى فصاحتهم . وكثيره مستمد من نفوذهم . برهانه انهم اذا فقدوا نفوذهم انعدم تأثيرهم

وهذا النفوذ شخصى لادخل فيه للاسم والشهرة . ومن غرائب الامثلة ما أتى به موسيو (جول سيمون) فى عرض كلامه في مجلس نواب سنة ١٨٤٨ الذى كان عضواً فيه قال :

« لم يكن لويز نابوليون شيئاً مذكوراً قبل ان يتم له السلطان بشهرين

ارتقى (فيكتور هيجو) منبر الخطابة فلم ينل نجاحاً بل سمعه الناس كما يسمعون (فيلكس پايات) ولكنهم لم يصفقوا له مثله . قال لى (فولايل) عن (پايات) انه لا يحب افكاره ولكنه كاتب كبيروهو أكبر خطباء فرنسا كذلك (ادجار كينيه) على علمه وقوة مفكرته لم يكن له شأن يذكر فان صيته ذاع قبل افتتاح المجلس فلما جاء اليه تخلفت عنه شهرته

والمجالس النيابية هى المكان الوحيد فى الارض الذى يضعف فيه نور الذكاء الفائق . فليس هناك للفصاحة قيمة الاّ ما وافق منها أحوال الزمان والمكان . ولا اهتمام الاّ بالخدم التى أديت للاحزاب لا للوطن . واذا كانت المجالس النيابية قد اكبرت شأن (لامارتين) سنة ١٨٤٨ و (تيير) سنة ١٨٧١ فما ذلك الا بتأثير الضرورة الشديدة الحالّة ولهذا بعد ان زال الخطر شفى الناس من واجب الشكران ومن الخوف معاً »

نقلت هذا القول للاستفادة من الحوادث الواردة فيه لا من البيان الذى اشتمل عليه لانه يدل على علم ناقص جداً باحوال النفس . اذ الجماعة لا تكون كذلك اذا عرفت لقائدها ما

قد يكون اداه من الخدم للوطن أو للاحزاب على حد سواء. والجماعة انما تطيع قائدها موقتة بسلطان نفوذه فيها من دون ان يقترن ذلك عندها بمنفعة او شكران

لذلك اذا كان للقائد نفوذ كبير فتسلطه عظيم . وكلنا يعرف هذا النائب الشهير الذى كانت له الكلمة العليا عدة سنين بما اوتى من النفوذ حتى فقد مركزه على أثر بعض الحوادث المالية . كانت اشارة منه تكفى لقلب الوزارة وقد اوضح احد الكتاب مقدار تأثير ذلك النائب فى الكلمات الآتية « انا مدينون لموسيو فلان وحده بكوننا اشترينا التونكين بثلاثة اضعاف ما تساويه وبكوننا لم نضع فى مدغشقر الا قدماً متزعزعة . وبكوننا غبنا فى مملكة كاملة جنوب نهر النيجر وبكوننا اضعنا ما كان لنا من النفوذ الخاص فى الديار المصرية الا ان نظريات موسيو (فلان) قد كلفتنا من الخسائر اكثر من مصائب نابوليون الاول[1]

---

(١) لعل المؤلف يشير الى موسيو كليمانسو الذى سمى هدام الوزارات ولو تأخر صدور هذا الكتاب الى الآن لغير المؤلف رأيه فى

على انه لا ينبغى تشديد النكير على هذا القائد وان كان قد كلفنا كثيراً لان اكثر نفوذه جاءه من تتبع الرأى العام . ولم يكن الرأى العام اذ ذاك فى المسائل الاستعمارية كما هو عليه الآن . ومن النادر ان يسبق القائد الرأى العام والغالب انه يسير خلفه ويتبعه فى الخطأ

للقائد فى اقناع قومه وسائل غير النفوذ هى التى ذكرناها مراراً . ولابد له فى قيادتهم من ان يكون قد وقف على حقيقة الروح السارية فيهم ولو من طريق الوجدان وعرف طريقة الكلام معهم . فينبغى له على الأخص ان يعرف ما لبعض الالفاظ من التأثير الذى يجذب نفوس السامعين وان يكون على جانب من الفصاحة المخصوصة التى تقوم بالتوكيد الشديد الخالى من الدليل وبالصور الأخاذة المحلاة بالحجج الناقصة . هذه فصاحة موجودة فى كل مجلس من المجالس النيابية حتى البرلمان الانكليزى الذى هو اكثرها اعتدالا

قال الحكيم الانكليزى (ماين) « من السهل ان تقرأ دائما

الرجل القابض اليوم على زمام السياسة الفرنساوية المتربع فى رئاسة نظارها ونظارة خارجيها وله فى السياسة العامة مقام كبير (م)

مداولات لمجلس العموم مدارها تبادل كليات ضعيفة وشخصيات حادة فلمثل هـذه الصيغ الكلية تأثير كبير فى خيال أهل الديمقراطية المحضة. ومن الميسور على الدوام جعل الجماعة تقبل القضايا العامة اذا قدمت لها بالفاظ جذابة ولو كانت من القضايا التى لم يحققها أحد. وربما كانت لا تحتمل التحقيق »

يؤخذ من ذلك انه لاحـد لتأثير « الالفاظ الجذابة » المذكورة وكم أتينا على بيان قوة الالفاظ والجمل. وما ينبغى أن يختار منها مما يمثل صوراً مؤثرة. واليك جملة تمثل ماتقدم اقتطفناها من خطابة أحد قواد مجالسنا « يوم يركب السياسى الافين والفوضوى السفاك ظهر باخرة واحـدة تقودهما الى منفاهما فى الاراضى الحمية ذلك هو اليوم الذى يتحادث فيـه الرجلان ويظهر كل واحد منهما لاخيه ممثلا احدى صورتى نظام اجتماعى واحد »

فالصورة التى يمثلها هذا المقال واضحة. وقد شعر خصوم الخطيب كلهم انهم مهددون بها. فهم يرون الاراضى الحمية مقرونة برؤية الباخرة التى تقودهم اليها لانهم من حزب أولئك

السياسيين الذين يهددهم ذلك العقاب . هنالك تولاهم الفزع الذى كان يدخل قلوب (المتعاهدين) اذ يسمعون (روبسبيير) يهددهم بمنجلة [١] الاعدام فيدينون له على الدوام

من مصلحة القواد أن يأتوا بالمبالغات التى لا يجوز فى العقل تصورها فمن ذلك ما أكده الخطيب الذى نقلنا عنه الصورة المتقدمة ولم يعارضه احد معارضة تذكر من ان أرباب المصارف المالية والقسوس يواسون الذين يقذفون قنابل الديناميت . وان مديرى الشركات المالية الكبرى يستحقون الجزاء الذى يستحقه الفوضويون . لمثل هذه التوكيدات دائماً أثر فى الجماعات . ولا يرمى الخطيب بالتطرف كيفما بالغ وأكد كما انه لاحرج عليه وان تعسف فى الطعن واشتد فى الهجاء ولا نظير لهذه الفصاحة من حيث التأثير فى السامعين لانهم ان جنحوا للمعارضة خافوا تهمة الخيانة او الاشتراك مع المجرمين

سادت هذه الفصاحة فى المجالس النيابية فى كل زمان كما

---

(١) آلة اعدام تفصل الرأس عن بقية الجسد

قدمنا وهى تشتد فى ازمنة الشدة . ومن افيد المطالعات قراءة الخطب التى كان كبار الخطباء يلقونها فى مجالس الثورة فقد كانوا يشعرون بالحاجة الى قطع الكلام حيناً فحيناً لتقبيح الجرم وتمداح الفضيلة . ثم تنهمر الشتائم من افواههم على الظالمين . ويقسمون انهم اما ان يعيشوا أحراراً واما أن يموتوا . ويقف الحاضرون يصفقون كمن بهم جنة . ثم يسكن جأشهم فيجلسون

قد يكون القائد احياناً ذكياً متعلما ولكن ذلك يكون مضراً به فى الغالب . لان الذكى يميل الى بيان مافى المسائل من اوجه التعقيد . ويقبل المناظرة والتفاهم .وذلك يؤدى الى التسامح والاغضاء ويكسر كثيراً من حدة العقيدة وحدة العقيدة لازمة للرسل . وكان اكبر القواد فى الامم خصوصاً قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جداً وكان اكبرهم تأثيراً اشدهم قصراً فى العقل . فان الانسان ليدهش مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل اعظمهم قدراً وهو (روبسبيير) ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار قال بعضهم يصفها « صيغ كلية جارية على

كل لسان . وشقشقة فى الفصاحة المحفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعنا فى نفس خلوها اكثر من انحطاطها . نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم او الدفاع الا ما تعوده التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله «هل من مبارز» وليس هناك رأى ولا تدبير ولا شاردة . عنف ممل وشدة مسئمة. فاذا فرغ القارىء من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة الى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف «كاميل ديمولان»

من المفزعات ما يناله الرجل ذو النفوذ من السلطة اذا صدقت عقيدته وقصر عقله . على انه لا بد لاستجماع ذلك فى الانسان حتى يستهين بالصعاب ويعرف كيف يريد . وللجماعات شعور كالالهام يهديها الى معرفة الرجل الذى اودعت فيه قوة العزيمة المبنية على صدق العقيدة فتدين لسلطته

انما ينجح الخطباء فى المجالس النيابية بما لهم من النفوذ لا بقوة البراهين التى يقيمونها . واصدق شاهد على ذلك انه اذا وقع لاحدهم ما يفقده نفوذه فانه يفقد معه تأثيره اعنى قدرته على ادارة الآراء كما يشاء

واما الخطيب المجهول الذى يذهب الى الجلسة بعد ان يكون قداعد خطابته ودعمها بالحجج ولم يكن لديه الا الحجج والادلة فلا رجاء له حتى فى الاصغاء اليه .وقد وصف موسيو (ديكوب) وهو احد النواب ومن علماء النفس المدققين النائب الذى لا نفوذ له فى السطور الآتيه « اذا استوى — الموصوف — على منبر الخطابة اخرج من محفظته اوراقا فنشرها امامه على الترتيب وشرع يخطب مطمئنا . وهو يفتخر فى نفسه بأنه سيبث عقيدته لتسكين روح سامعيه . لانه وزن ادلته وحررها. واعد شيئا كثيرا من الاحصاآت والحجج . وايقن ان الحق فى جانبه . وان معارضه لا يثبت امام الحقيقة الناصعة التى يأتى بها . هكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه واصغاء اخوانه لاعتقاده انهم لا يطلبون الا السجود امام الحق . وبينما هو يخطب اذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين . ثم يتقزز بالضوضاء الناتجة من ذلك الاضطراب . ويتساءل كيف لا يسود السكون . وما السبب ياترى فى هذا الانصراف العام . وما الذى يدور على السنة اولئك الذين يتحادثون فيما بينهم وما السبب القوى الذى يحمل ذاك

على ترك مجلسه . يتساءل الخطيب هكذا والحيرة تعلو جبهته فيفرك حاجبيه ويمسك عن الكلام ويشجعه الرئيس فيعود بصوت مرتفع . فيزيد الاعضاء فى عدم الاصغاء اليه . فيجهر ويهتز . فتزداد الجلبة حواليه . ويعود لايسمع نفسه فيمسك عن الكلام مرة أخرى . ثم يخشى أن يدعو سكوته الى أصوات (الاقفال الاقفال) فيرجع الى خطابته بمافيه من قوة . وهناك تعلو الجلبة ويختلط الحابل بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواصفون »

ومن خواص المجالس النيابية انها اذا تحرك شعورها وارتقت فى الهياج الى درجة معلومة تصير كالجماعات العادية المختلفة العناصر سواء بسواء فتغلو الى النهاية فى مشاعرها . وتذهب الى أقصى مراتب الشجاعة وآخر درجات التطرف فى القسوة . اذ ذاك لايصير الرجل نفسه بل يبعد عنها بعداً يحمله على تقرير ما يخالف منافعه كل المخالفة

والذى يقرأ تاريخ الثورة الفرنساوية يدرك الى أى حد تفقد المجالس شعورها وتخضع لما يطلب منها وان خالف اعز المنافع لدى افرادها . كان من أكبر الضحايا ان يتنازل

الشرفاء عن امتيازاتهـم ومع ذلك فعلوه غـير مترددين ذات ليلة من ليالى « الدسـتورية » وكان تنازل المتعاهدين عن تقديس أشخاصهم منـذراً لهم بالويل والدماء ولكنهم فعلوا وماخشوا تقتيل بعضهم بعضاً ولا أرهبهـم اعتقاد كل واحد منهم انه مسوق الى الاعدام لا محالة كما يسوق هواليوم اخوانه اليه غير انهم كانوا اقدوصلوا الى حالة من التهيج جعلتهم كالآلات تتحرك من نفسها على ماوصفنا فلم يعـد هناك من الاعتبارات ما يقوى على صدهم عن اتباع الهوى المتمكن من صدورهم اليك ماقاله أحدهم (بيلوفارين) ممـا يوضح ما ذكر « ما كنا لنريد القرارات التى يلومنا الناس من أجلها قبل أن نصدرها بيومين اثنين بل بيوم واحدولكن المحنة هى التى كانت تمليها » وما أصدق ما كتب

كانت جلسات التعاقدمتفردة باللاشعور كما عرفت بالهياج قال تاين «لقد اقروا وشرعوا ما كانوا يجزعون له اشد الجزع ولم يكتفوا فى ذلك بالحماقيات والجنونيات . بل شرعوا الآثام وقتل الابرياء واعدام الاصدقاء وانضم حزب الشمال الى حزب اليمين وقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد ارسال

(دانتون) الى المنجلة وكان رئيسه الطبيعى وموجد الثورة وقائد زمامها ومال اليمين الى الشمال فقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد افظع الاوامر التى اصدرتها الحكومة الثورية وبين اصوات الاعجاب والنشوة تدفق الميل والانعطاف نحو (كولوت ديربوا) و (كوطون) و (روبسبيير) فجدد (المتعاقدون) انتخاب أعضاء الحكومة الثورية وابقاءها على منصة الحكم وهى الحكومة القاتلة التى كان يبغضها السهل لجرمها ويمقتها الجبل لانها كانت تحصده اصطلح السهل مع الجبل واتفق القليل مع الكثير ورضى الجميع بمساعدة قاتليهم على اعدامهم ثم فى يوم ٢٢ من الشهر تقدمت رقاب تلك الحكومة الى التقطيع وبعد ذلك بقليل تقدمت اليه أيضاً تلك الرقاب عقب خطاب روبسبيير »

قد يكون الوصف اقتم ولكنه الحق الواقع والصفات المتقدم ذكرها توجد فى المجالس النيابية المتهيجة التى سكرت بخمر فكر من الافكار فتصبو كالقطيع المتحرك يسوقه كل دافع وقد وصفها على هذه الحال موسيو (سبوللر) وهو شورى لا يشك احد فى صدق افكاره الديمقراطية وصفا

دقيقاً نذكره للقراء نقلا عن (المجلة الادبية) ويرى القارئ فيه جميع المشاعر المتطرفة التي قدمنا ذكرها وتمثل فيها التقلبات الشديدة التي تنتقل بها الجماعات من الضد الى الضد من لحظة الى أخرى . قال موسيو (سبوللر)

« ان التنافر والحسد وسوء الظن ثم الثقة العمياء والآمال التي لا نهاية لها اوردت الحزب الجمهوري حتفه فلقد كان له من السذاجة مالا يساويه الا سوء ظنه المطلق . لا يدرك شرعية الامور ولا يفقه للنظام معنى . ذعر وآمال لا تنتهي حالتان يستوى فيهما الريفي والطفل فسكونهما يضارع قلقهما . ووحشيتهما تماثل طاعتهما ذلك شأن المزاج الذي لم يرتب والتربية التي انعدمت . لا يندهشان لامر وكل امر يفقدهما الصواب يرتجفان ويرهقان وفيهما الاقدام والشجاعة . فيقتحمان النار . ويجفلان من الظل . ويجهلان العلل والمعلولات . ويسارعان الى الفتور مسارعتهما الى التهوس . فيهما استعداد للفزع والذهول . ويتخبطان من الافراط الى التفريط فلا يعرفان الوسط ولا القدر الذي ينبغي ابداً . ألين من الماء تنعكس فيهما جميع الالوان . ويتشكلان بكل الصور

أى رجاء فى حكومة تؤسس فوقهما »

لكن من حسن الحظ ان جميع الصفات التى اتينا على ذكرها فى المجالس النيابية لا تظهر دائما . لان تلك المجالس لا تكون جماعات الا فى بعض الاحايين . والغالب ان كل عضو من اعضائها يحفظ ذاتيته على استقلال . ومن هنا صح لها ان تسن من القوانين الفنية ماهو حسن للغاية . نعم ان الذى يضع هذه القوانين انما هو اختصاصى واحد يحضرها فى سكون مكتبته وكل قانون اقره المجلس هو صنع فرد واحد لاصنع المجلس كله . ولكن القوانين التى وضعت بهذه الكيفية هى احسن ما يشرع وانما يكون القانون ضارا اذا ادخلت عليه فى الهيئة تعديلات رديئة فجعلته من صنع الجماعة ذلك لان صنع الجماعة احط درجة من عمل الفرد دائماً وفى كل مكان . والاختصاصيون هم الذين ينجون المجالس النيابية من الوقوع فى الاعمال المضرة التى لا يهذبها الاختبار . فالاختصاصى يكون عند ذلك قائداً وقتياً يؤثر فى المجالس ولا تأثير للمجلس فيه

المجالس النيابية هى أحسن الوسائل التى اهتدت اليها الامم

فى حكم نفسها وبالاخص فى التخلص ما استطاعت من نير المظالم الشخصية مع ما عليه المجالس المذكورة من صعوبة الحركة . وهى على التحقيق أرقى اشكال الحكومات ان لم يكن عند الكافة فعند الفلاسفة والمفكرين والكتاب وأهل الفنون والعلماء وبالجملة عند كل عنصر من العناصر التى تتكون منها ذروة الحضارة فى الامم

على اننا اذا نظرنا اليها من الجهة العملية لانرى لها الا ضررين كبيرين . الاول تبذير الاموال تبذيراً لا مناص منه. والثانى الترقى فى تحديد الحرية الشخصية

فاما الضرر الاول فهو نتيجة عدم تبصرة الجماعات الانتخابية . فاذا قدم أحد الاعضاء طلباً لسد حاجة اجتماعية ديمقراطية ولو فى الظاهر كتقرير معاش لجميع العملة أو زيادة مرتبات بعض خدمة الريف والمعلمين وهكذا لا يسع الاعضاء الآخرين ان يرفضوه لخوفهم من الناخبين حتى لا يظهروا بمظهر من لا يهتم بمصالحهم ولو كانوا على يقين من أن الطلب يبهظ الميزانية ويفضى الى تقرير ضريبة جديدة . اذن يستحيل عليهم الرفض . اما نتائج الزيادة فى المصروفات فهى بعيدة ولا

تأثير لها فى أشخاصهم الاَّ قليلا بخلاف مالو رفضوا الطلب فان النتيجة تتجلى يوم يضطرون للوقوف امام الناخبين وما ذلك اليوم ببعد

وهناك سبب قوى أخر يستلزم زيادة المصروفات وهو الاضطرار لمنح المصروفات المحلية اذ لا يجرأ عضو فى المجلس على رفض طلبها لكونها فى منفعة الناخبين مباشرة . ولأنه لا يتمكن من نيل ما يريده لمركزه الا اذا أقر مايطلبه زملاؤه لمراكزهم[1] .

---

(١) ذكرت جريدة (ايكونو ميست) فى عددها الصادر بتاريخ ٦ ابريل سنة ١٨٩٥ بياناً غريباً للنفقات التى تتكلفها تلك المصالح المحلية فى سنة واحدة وخصوصاً السكك الحديدية فكان كما يأتى : الخط بين (لانجاى) وسكانها (٣٠٠٠) نسمه وهى منزوية في احد الجبال و (بوى) خمسة عشر مليوناً . والخط بين (بومون) وسكانها (٣٥٠٠) نسمة و (كاستيل سازاران) سبعة ملايين . والخط بين (اوست) وسكانها (٥٢٣) نسمة و (سيكس) وسكانها (١٢٠٠) نسمة سبعة ملايين . والخط بين (براد) وكفرة (اوليت) وسكانها (٧٤٧) نسمة سبعة ملايين

وأما الضرر الثانى وهو التدرج فى تقييد الحرية الشخصية تدرجا قهريا كذلك فهو ضرر محقق وان كان اقل وضوحا من الاول . وهو نتيجة القوانين العديدة التى لا تدرك المجالس النيابية نتائجها تماماً لبساطة افكارها ولكونها تحسب انها مضطرة لتقنينها وليست القوانين الا قيوداً .

وهكذا . وبلغ مجموع كلفة السكك الحديدية التى تقرر انشاؤها فى سنة ١٨٩٥ وحدها ولم يكن لها منفعة عامة مطلقاً تسعين مليوناً وستبلغ مصروفات تنفيذ قانون معاشات العمال ١٦٥ مليون بحساب ناظر المالية أو ٨٠٠ مليون بحساب (لوروابوليو) عضو جمعية العلوم ولا يخفى ان استمرار زيادة المصروفات على هذا النحو يؤدى الى الافلاس . وقد وصل اليه كثير من الممالك فى اوروبا مثل البرتقال واليونان واسبانيا وتركيا ومنها ما اصبح قادما عليه مثل ايتاليا. الا انه لا داعى للاهتمام كثيراً بما ذكر لان الناس قبلوا نقص الفائدة التى تدفعها تلك البلاد على ديونها بمقدار اربعة الاخماس من دون امتعاض كبير . وهى تفاليس محكمة التدبير تسمح لاممها باصلاح ميزانياتها . على ان الحروب والاشتراكية والمزاحمات الاقتصادية تضمر لنا مصائب اشد وانكى . وقد دخلنا فى زمن التفكك والتحلل العام . فعلينا الرضا بالعيش يوما بيوم . وان لا نهتم بالغد لانه ليس في ملكنا

والظاهر انه لا مفر من هذا الخطر لان انكلترا نفسها لم تتمكن من اتقائه مع ان نظامها النيابى اكمل النظامات لان النائب الانكليزى اكبر النواب استقلالا امام ناخبيه وقد أشار (هربرت سبنسر) منذ زمن بعيد الى ان الزيادة الظاهرية فى الحرية الشخصية لا تلبث ان تتبع بنقص حقيق فيها ثم عاد الى هذه النظرية فى كتابه الذى سماه (الفرد والحكومة) ومما قاله « جرى التشريع منذ ذلك الحين على النحو الذى أشرت اليه . فما اسرع ما كثرت اللوائح القسرية وكلها ترمى الى تحديد الحرية الشخصية . وذلك من طريقين . الاول ان كل سنة قد أربت على سابقتها فى كثرة اللوائح التى تلزم الافراد بواجبات كانوا احراراً منها . وتفرض عليهم اعمالا كانت مباحة ان شاؤا فعلوها وان شاؤا اهملوها . والثانى زيادة الضرائب العامة التى يجب على الافراد القيام بها وذلك يحرمهم من ثمرات كسبهم بقدر ما يزيد فى المال الموكول صرفه الى مشيئة الموظفين العموميين »

وهذا الترقى فى تحديد الحريات يظهر فى جميع البلاد بصورة واحدة لم يذكرها (هربرت سبنسر) وهى ان احداث تلك

القوانين المقيـدة ينتج حتما زيادة عدد الموظفين المـكلفين بتنفيذها ثم هو يقوى نفوذهم . ومآل اولئك الموظفين بهذه الطريقة صيرورتهم سـادة البلاد المتمدنة الحقيقيين . لان طائفتهم هى التى لا ينالها أثر التقلبات المستمرة التى تطرأ على حكومة البلاد ولذلك كانت سيطرتها شديدة على قدر ثبوت قدمها فى الوظائف فهى الطائفة الوحيدة التى لا تبعة عليها من اعمالها ولا شخصية لاحد فى مجموعها وهى باقية على الدوام ومن المعلوم ان اشد صور الاستبداد هى التى اجتمعت فيها تلك الصفات الثلاث

ان الاستمرار على سن هـذه القوانين واللوائح المقيدة لحرية الناس والتى تحيط بكل حركة من حركاتهم وأن صغرت بسور من الاجراآت (البيزنطية) من شأنه ان يضيق دائرة العمل الذى لا قيد فيه لـكن الأمم قد خدعت فى خيالها فحسبت ان الاكثار من القوانين توكيد لضمان الحرية والمساواة وصارت تقبل كل يوم قيداً ثقيلا

على انها لا مهرب لها من نتيجة هذا الرضا فان التعود على احتمال النير كل يوم يفضى بها الى تطلبه وفقدان ملكة الاقدام وقتل

العزيمة فتصبح حينئذ أثراً بعد عين والآلات تنفعل بحركة غيرها لا ارادة ولا صلابة ولا قوة

واذا فقد الانسان المقدمات فى نفسه اضطر الى طلبها فى غيره وكلما ازداد عدم اهتمام الافراد وضعفهم اشتدت سطوة الحكومة وقويت شوكتها بالضرورة . هنالك تضطر الى ابدال اقدامهم على الاعمال باقدامها والقيام مقامهم فى الاخذ بيد المشروعات كلها والتداخل فى تنظيم سير الافراد دونهم لانهم اضاعوا ملكة ذلك كله — وتصبح الحكومة مكلفة بان تعمل كل شىء وتدير كل شى وتحمى كل شىء فتصير الهاً قادراً . الا ان التجربة دلت على ان قدرة مثل هـذا الاله لم تكن قوية ولم تدم الا قليلا

والظاهر ان الترقى فى تقييد الحريات عند بعض الامم التى تظن انها متمتعة بها لما هى فيه من الاطلاق الصورى ناشىء من هرمها كما ينشأ عن هرم أى نظام كان . وذلك نذير دور الانحطاط التى لم تنتج منه مدنية حتى الآن

واذا قسنا الحاضر بالماضى ورجعنا الى العلامات التى تبدو من كل صوب حكمنا بان عدداً كبيراً من مدنياتنا الحاضرة

قد وصل الى اقصى حدود الهرم الذى هو طليعة الانحطاط والظاهر انه لابد لجميع الامم من عبور هذه السبيل لان التاريخ يروى لنا انه دور كثيراً ما تجدد

ولقد يسهل بيان الادوار التى تتقلب فيها المدنيات بقول موجز وهو الذى نريد ان نختم به هذا الكتاب فلعل فيه توضيحاً لاسباب قوة الجماعات

اذا سبرنا المدنيات التى سبقت مدنيتنا فى حالتيها الرقى والانحطاط فما الذى نعثر عليه

نعثر فى فجر هذه المدنيات على خليط من الناس مختلف الاجناس جمعتهم عفواً الهجرة والاغارات والفتوحات ولكونهم اختلفوا فى المحتد وتباينوا لغة وديناً لم يكن بينهم من الرابطة العمومية الا سلطة الرئيس على ضعف اعترافهم بها . وفى تلك المجامع المختلطة نشاهد صفات الجماعات بارقى صورها فلها منها الائتلاف الوقتى . والشجاعة والضعف . والاندفاع والقسوة . وعدم ثبات شىء من ذلك . ان هم الاقوم متوحشون

ثم دار الزمان فادى وظيفته . وأخذت جامعة البيئة وتكرار

التناسل وحاجات المعيشة الاجتماعية تؤثر أثرها شيئاً فشيئاً وبدأت اجزاء المجموع المختلفة تمتزج بعضها ببعض وتكون شعباً أى تركيباً ذا صفات عامة ومشاعر متشابهة تمكنها الوراثة كل يوم هكذا صارت الجماعة أمة وآن لهذه الامة ان تخرج من دائرة الهمجية

على انها لا تخرج منها الا اذا تكون لها مقصد عام تشخص اليه . وذلك لا يتم الا بعد مجهودات طويلة . ومغالبات متجددة على الدوام . وبدايات يخطئها الحصر . وسواء كان المقصد العام الوهية روما او تعظيم اثينا او نصرة الله فهو يكفي لتوحيد افكار افراد الامة وهى فى دور التكوين

هنالك تتولد مدنية جديدة بما تقتضيه من النظامات والعقائد والفنون وينجر الشعب وراء مقصده ويصل الى ما ينيله الابهة والجلال والقوة والاعظام . نعم تعرض له احوال يكون فيها جماعة الا انه يكون له خلف صفاتها المتقلبة ذلك الموجود القوى اعنى روح الشعب فهى التى تقيد تقلباته وتحددها وتضع للمصادفات نظاماً مسنونا

فاذا اتم الزمان صنعه الايجادى يبدأ بصنعه الاعدامى الذى

لم ينج منه عابد ولا معبود فتقف المدنية عند وصولها الى حد معين من الشوكة والتشعب ومتى وقفت اسرع اليها الانحطاط لا محالة فقد اقتربت الشيخوخة ودنت ساعة الاجل

علامة تلك الساعة التى لا مفر منها تكون دائماً ضعف اليقين بالمقصد الذى اتكأت عليه روح الشعب وكلما انزوى عود هذا الخيال اندكت صروح الدين والسياسة والاجتماع التى كانت تستمد منه حياتها .

كلما انزوى خيال الشعب فقد هو علة امتزاجه . وداعى وحدته . وموجد قوته . وتمت شخصية الافراد . وعظم الذكاء فيهم غير ان ذلك يصطحب بحلول الاثرة الشخصية المفرطة محل الاثرة القومية. ووراءه انطماس الاخلاق. وضعف القدرة على العمل . ويصبح ذلك التركيب الذى كان يكون امة ـ اى وحدة وان شئت فقل كتلة ـ جمعاً مؤلفاً من افراد غير مؤتلفين . لا رابطه بينهم الا الجامعة الصناعية الآتية من التقاليد والنظامات ومتى وصل الناس الى هذه الحال من افتراق المنافع واختلاف النزعات وعدم الاهتداء الى طريقة يحكمون بها انفسهم جدوا فى طلب من يقودهم فى جميع

أعمالهم وان صغرت فتأتى الحكومة بسلطانها وتبتلع كل شىء

واذا تم فقدان الخيال تم فقدان روح الامة . فتعود خليطاً من الناس كل يعمل على شاكلته . وترجع الى ما كانت عليه فى بدايتها جماعة لها منها جميع الصفات الوقتية . فلا شعور . ولا امل . هنالك تنعدم اساطين المدنية . وتمسى هدفا لحوادث الاتفاق . وتصير العامة سلطانة فى الناس . وتبدو طلائع المتوحشين . وقد يلوح على المدنية انها باقية فى بهائها الان محياها لا يزال يضىء بما اكسبته الاجيال الطويلة من البهجة والرواء ولكن الحقيقة انه بناء اكله السوس وفقد دعائمه واستعد للسقوط بأى عاصفة

فمن همجية الى حضارة وراء مقصد فى الخيال . ومن حضارة الى انزواء . فموت حين يضمحل الخيال . هذا مدار حياة الامم

تم

فهرست

صحيفة

. مقدمة المعرب

٢ مقدمة المؤلف

٩ تمهيد

زمن الجموع

تطور أهل الوقت الحالى ـ فى ان تغييرات المدنية العظيمة نتيجة أفكار الامم ـ اعتقاد أهل هذا العصر بقوة الجماعات ـ فى ان هذا الاعتقاد يحول الدول عن سياستها التقليدية ـ كيف تسود سلطة طبقات الأمة وكيف تجرى تلك السلطة ـ النتيجة اللازمة لسلطة الجماعات ـ فى أن الجماعات لا تستطيع الا الهدم ـ فى انها هى التى تجهز على المدنية التى وهن بناؤها ـ فى الجهل العام باحوال الجماعات النفسية ـ اهميـة الوقوف على تلك الاحوال عند الشارع والسياسى

صحيفة

الباب الأول ٢٣

روح الجماعات

الفصل الاول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسانى

ما الجماعة عند علماء النفس – فى ان مجرد اجتماع عدد كبير من الافراد لا يكفى لتكوين جماعة – في اتحاد وجهة افكار الافراد الذين تتألف الجماعة منهم ومشاعرهم وانعدام شخصياتهم – فى ان الجماعة خاضعة دائماً لحكم اللاشعور – ازوراء الحياة الشعورية وظهور الحياة اللاشعورية – انحطاط القوة العاقلة وتغير الاحساس تغيراً كلياً – فى ان ذلك الاحساس المتغير يكون أحسن أو أردأ منه فى الاشخاص الذين تتألف الجماعة منهم – سهولة اندفاع الجماعة الى الشجاعة والى الشر

الفصل الثانى ٣٧

مشاعر الجماعات وأخلاقها

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب – الجماعة العوبة

فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة ـ البواعث التى تدفع الجماعة الى الفعل قوية جداً تمحى امامها المنفعة الخاصة ـ لاشيء من افعال الجماعة يصدر عن قصد وروية ـ تأثير الاخلاق القومية فى الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر وللتصديق ـ طاعة الجماعة للمؤثرات فى انها تأخذ الخيالات التى تمثل لها حقائق ثابتة ـ علة اجماع افراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفية واحدة فى التساوى بين العالم والبليد فى الجماعة ـ بعض أمثلة للخيالات التى يتأثر بها افراد الجماعة كلهم ـ فى استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة ـ فى ان اتفاق العدد العديد من الشهادات من اردأ الأدلة على اثبات أمر معين ـ ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) فى غلو مشاعر الجماعة وبساطتها ـ الجماعة لا تعرف الشك ولا التردد وتذهب دائما الى التطرف — فى ان مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائما

(٤) فى ان الجماعة قليلة المسالمة ميالة الى التسلط والامرة والمحافظة على القديم — فى علة تلك الصفات — فى خنوع الجماعة أمام السلطة القوية — فى ان نزوع الجماعة الى الثورة وقتاً من الاوقات لايمنع من كونها محافظة للغاية — فى ان مشاعر الجماعة تضاد التقلبات والترقى

(٥) فى اخلاق الجماعة — قد تكون اخلاق الجماعة احط كثيراً من أخلاق افرادها وقد تكون ارقى منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التى تتأثر بها — علة ذلك وأمثلته — قلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع انها هى الداعى الوحيد للفرد فى عمله — شأن الجماعة فى تهذيب الاخلاق

صفحة الفصل الثالث

٧٠ أفكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

(١) افكار الجماعات — الافكار الاساسية والافكار التبعية ـ فى اجتماع الافكار المتناقضة — تغير الافكار العالية حتى تصل الجماعات الى ادراكها — اثر الافكار فى الهيئة الاجتماعية بمعزل عما تشتمل عليه من الحقيقة

(٢) تعقل الجماعات ـ عدم قابلية الجماعات للتأثر بالمعقول — درجة تعقل الجماعة منحطة دائما — لا تشابه ولا تلازم بين الافكار التى تجمع الجماعات بينها الا فى الظاهر

(٣) تخيل الجماعات — شدة تخيل الجماعة ـ انما تتخيل الجماعات بواسطة الصور وهى تتوارد عليها من غير جامعة بينها أصلا ـ انما يشتد تأثر الجماعات من الاشياء بالجهة الخلابة فيها — خلابة الاشياء وما فيها من الاقاصيص هما اساس المدنية الحقيقية — تخيل الجماعات كان على الدوام قوة رجال السياسة فى الامم ـ كيف تبدو الحوادث التى لها قوة التأثير فى تخيل الجماعات

صفحة الفصل الرابع

٨٥ الصبغة الدينية التي تتكيف بها اعتقادات الجماعات

ما هو الشعور الديني ــ الشعور الديني مستقل عن عبادة الالوهية ــ مميزات الشعور الديني ــ قوة المعتقدات التي لها صبغة دينية ــ أمثلة شتى ــ في أن آلهة العامة لم تزل ــ في الصور الجديدة التي تظهر بها تلك الآلهة ــ الشكل الديني للالحاد ــ أهمية هذه المباديء من الجهة التاريخية ــ في ان الاصلاح أو قيام البروتستانتية وواقعة صانت بارتلمي وزمن (الهول) وجميع الحوادث المماثلة هي أثر مشاعر الجماعات الدينية لا أثر ارادة فرد واحد

صفحة

٩٤

الباب الثانى

أفكار الجماعات ومعتقداتها

الفصل الاول

العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وأفكارها

العوامل التحضيرية لمعتقدات الجماعات ـ في ان ظهور معتقدات الجماعة نتيجة اختمار سابق ـــ البحث عن العوامل المختلفة فى تلك المعتقدات

(١) الشعب وما له من التأثير الاول ـ فى انه مستودع ما ترك الآباء

(٢) التقاليد وكونها خلاصة روح الشعب ـــ اهمية التقاليد من الجهة الاجتماعية ـ فى انها تصير مضرة بعد ان كانت لازمة

فى ان الجماعات اشد احتفاظاً للافكار التقليدية
(٣) الزمن وكونه يهيء استقرار المعتقدات ثم زوالها ـ فى انه هو الذى يولد النظام من الفوضى
(٤) النظامات السياسية والاجتماعية ـ فى الخطأ فى تقدير تأثيرها — فى ان تأثيرها ضعيف جداً — فى انها آثار لا مؤثرات — فى انه لا يتيسر للامم ان تختار منها ما تظنه الاحسن — فى ان النظامات عناوين يندرج تحت الواحد منها امور متخالفة بالمرة — كيف توجد النظامات — فى انه لا بد لبعض الامم من بعض نظامات رديئة نظريا كجمع السلطة وتوحيدها
(٥) التعليم والتربية — خطاء الناس في افكارهم الحالية من حيث تأثير التعليم فى الجماعات — بعض ايضاحات من الاحصاآت — التربية اللاتينية تضعف الاخلاق ـ فى التأثير الذى يمكن أن يكون للتعليم ـ امثلة عن امم مختلفة

صفحة الفصل الثانى

١٢٦ العوامل القريبة فى أفكار الجماعات

(١) الصورة والالفاظ والجمل ـ فيما للالفاظ والجمل من القوة

السحرية — في ان قوة الالفاظ مرتبطة بالصور التي تحدثها في الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيقي — في ان تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم — كثرة الالفاظ — امثلة على كثرة اختلاف معاني بعض الالفاظ المستعملة — الفائدة السياسية من اطلاق اسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت اسماؤها الاولى تحدث تأثيراً سيئاً في نفوس الجماعات ـ اختلاف معاني الالفاظ الواحدة باختلاف الامم ـ اختلاف معنى ديموقراطية في اوروبا وفي امريكا

(٢) في الاوهام — في اهمية الاوهام — في ان الاوهام موجودة في اساس كل مدنية — ضرورة الاوهام في الاجتماع — في ان الجماعات تفضل الوهم على الحقيقة

(٣) التجارب — يجوز ان تولد التجارب وحدها في نفوس الجماعات حقائق لازمة وتهدم اوهاما ضارة — انما تؤثر التجارب اذا كثرت — ما تقتضيه التجارب اللازمة لاقناع الجماعات

(٤) العقل — عدم تأثيره في الجماعات — في انه لا يمكن التأثير في الجماعات الا من طريق مشاعرها الغريزية — شأن المنطق في التاريخ — في الاسباب الخفية للحوادث الخارجة عن المعقول

صفحة الفصل الثالث

١٤٧ قواد الجماعات وطرقهم فى الاقناع

(١) قواد الجماعات — حاجة الجماعات الفطرية الى قائد تطيعه ـ روح القواد ـ القواد هم الذين يمكنهم وحدهم ايجاد الاعتقاد ووضع نظام للجماعات ـ استبداد القواد نتيجة لازمة ـ أنواع القواد ـ شأن الارادة

(٢) وسائل التأثير التى يستعملها القواد ـ التوكيد والتكرار والعدوى ـ تأثير كل واحد من هذه العوامل ـ كيف ترتقى العدوى فى الامة من الطبقة السفلى الى الطبقة العليا — فى ان الفكر يكون للعامة فلا يلبث أن يصير عاما

(٣) النفوذ ـ تعريف النفوذ وانواعه ـ النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى ـ امثلة متنوعة ـ كيف يزول النفوذ

صفحة | الفصل الرابع

١٧٩ حدود تقلب معتقدات الجماعات وأفكارها

(١) فى المعتقدات الثابتة ـ فى عدم تقلب بعض المعتقدات العامة ـ فى ان هذه المعتقدات هى التى تهتدى بها المدنية ـ فى صعوبة ازالتها ـ فى ان التعصب أحد فضائل الامم من بعض الوجوه ـ فى ان بطلان معتقد عقلا لا يؤثر فى انتشاره ورسوخه

(٢) فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة ـ فى ان الافكار التى لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير ـ فى ان تغيير المعتقدات والافكار يظهر فى أقل من قرن واحد ـ فى حدود هذا التغير الحقيقية ـ فيما يكون فيه التغير ـ فى ان زوال المعتقدات العامة فى العصر الحاضر وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد فى كثرة تغير الافكار ـ فى ان افكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال ـ فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق ـ فى ان تشعب الافكار فى الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

صفحة

١٩٩ الباب الثالث

أقسام الجماعات وبيان انواعها

الفصل الاول

أقسام الجماعات

اقسام الجماعات العامة ـ انواعها

(١) الجماعات المختلفة العناصر ـ اوجه اختلافها ـ تأثير الشعب في ان روح الجماعات تكون ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية ـ في ان روح الشعب تمثل حالة الحضارة وروح الجماعات تمثل حالة الهمجية

(٢) — الجماعات المؤتلفة العناصر — أنواعها — الافتاء والطوائف والطبقات

صفحة الفصل الثانى

٢٠٦ الجماعات الجارمة

يجوز ان تكون الجماعة جارمة شرعاً لكنها لا تعد كذلك فلسفيا — في ان افعال الجماعة لاشعورية محضة — امثلة شتى — روح جماعة

شهر ستمبر — افكارها وشعورها وقسوتها واخلاقها

—

صفحة الفصل الثالث

٢١٤ العدول المحامون امام محاكم الجنايات

الصفات العامة للعدول — فى ان الاحصاء يدل على انه لا تلازم بين قراراتهم وكيفية تشكيلهم — كيف يتأثر العدول — ضعف تأثير الدليل العقلى — طريقة الاقناع التى استعملها اشهر المحامين — الجرائم التى يرأف العدول بمن ارتكبها او التى يقسون من اجلها — فائدة العدول وخطر تبديلهم بالقضاة

—

صفحة الفصل الرابع

٢٢٥ جماعات الانتخاب

الصفات العامة لجماعات الانتخاب — طريقة اقناعها — الصفات التى يجب ان تكون للمترشح — ضرورة النفوذ — السبب فى ان العملة والصناع قلما ينتخبون النائب من بينهم — سلطان الالفاظ والجمل على الناخب — صورة المناقشات الانتخابية — كيف يتكون رأى الناخب — سلطان اللجان — فى انها تمثل أشد صور الاستبداد — لجان الثورة الفرنساوية — من المتعسر الاستعاضة عن الاقتراع العام كيفما

كانت قيمته ضعيفة — في بيان ان النتيجة تكون هي بذاتها اذا قصر حق الانتخاب على فريق من الاهلين — في معنى الاقتراع العام عند كل امة

—

صفحة	الفصل الخامس
٢٤٠	المجالس النيابيه

اكثر الصفات العامة للجماعات المختلفة العناصر غير الاسمية توجد في الجماعات النيابية — بساطة الافكار — الانفعال وحدوده — الافكار الثابتة والافكار المتقلبة — السبب في ان التردد هو الغالب — شأن القواد — سبب نفوذهم — هم الذين لهم الكلمة في المجلس بحيث ان رأى الجميع يرجع الى راى عدد محدود من الاعضاء — سلطان القواد الشامل — اركان خطابتهم — الالفاظ والصور — في ان الضرورة تقتضى ان يكون القواد مقتنعين بما يلقون من الاراء وان يكونوا من قصار النظر — في انه يستحيل ان تقبل اراء الخطيب الذى لا نفوذ له — غلو مشاعر الهيئة سواء كانت طيبة أو رديئة — في انها تتحرك أحياناً بحركة نفسية — في جلسات « المتعاهدين » — في الاحوال التى لا يكون للهيئة فيها صفة الجماعة — تاثير الاختصاصين في المسائل الفنية — منافع النظام النيابى ومضاره في كل امة — في ان النظام موافق لاحتياجات العصر ولكنه يؤدى الى تبذير الاموال وتحديد جميع الحريات شيئاً فشيئاً — خلاصة الكتاب

تم الكتاب

﴿ تصحيح خطأ ﴾

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٥	١٤	تقيم	تقسيم
٢٨	١٧	ولـكن	ولـكى
٣٢	١٢	قابليته	قابلية
٣٥	٨	وحصدوا	وحصد
٤٢	٨	حال	حائل
٤٣	١٦	بها	بهن
٥٦	٢	يعبده	تعبده
٦٤	١٦	اذ	اذا
٦٨	١٢	مرزولة	مرذولة
٨٦	١٣	لأوامره	لاوامرها
٨٦	١٣	تعاليمه	تعاليمها
٨٩	٢	لقسس	لقسوس
٩٦	٤	التريية	التربة
٩٨	١	مدينته	مدنيته

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠٣	١٥	التربية	التربة
١٠٧	١٥	بداء	بدأ
١١٢	١٤	بتعليمها	بتعلمها
١١٥	١٧	يختار	يختارون
١١٨	١٧	الشباب	الشاب
١٢٠	١	يقدروا	يقدرون
١٣٤	١٧	أطل	أطيل
١٤٦	١١	اللذات	الذات
١٥٢	٥	يجددون	يحددون
١٥٣	١٦	تفسهم	انفسهم
١٧٢	١٧	السلف	الخلف
١٧٣	١	الخلف	السلف
١٧٣	١	نره	نراه
١٧٤	٢	ابلغ	بلغ
٢٠٢	٧	ذكرنا	ذكرناه
٢١٠	١٥	المهتمين	المتهمين
٢١٧	١٦	التى جاء بها	الذى جاء به
٢١٩	٨	يشعرمنه الانحراف	يشعرمنه بالانحراف
٢٣٥	٧	طبقاً	طبعاً